مجموعة قصصية

الهروب إلى آخر الدنيا

سناء شعلان

نادي الجسرة الثقافي والاجتماعي
Al Jasrah Cultural & Social Club

الهروب إلى آخر الدنيا

سناء شعلان

ماذا يمكن أن يجد الهارب من نفسه إلى آخر الدنيا
سوى نفسه المعذّبة التائقة للانعتاق؟؟!

سناء

إضاءة

هذه مصافحة أخرى مع الإبداع يبادر إليها نادي الجسرة الثقافي الاجتماعي ،الذي حرص دوماً على الاحتفاء بالمبدعين من مختلف ربوع وطننا العربي، وفتح مواهبهم وإبداعهم على كلّ ما يتوفّر لديه من فضاءات. فقد احتضن صالون الجسرة الثقافي عدة مواهب في مجالات الشعر والقصة ،بل إنّ جيلاً من الأدباء الشباب قد تخرّجوا من هذا الصالون.

وشجّع النادي الإبداع مسموعاً ومكتوباً، فأسهم في عدة إصدارات، وها هو اليوم يقدّم للقارئ العربي هذه المجموعة القصصية للكاتبة الأردنية سناء كامل شعلان.و هذه المجموعة التي تحمل عنوان "الهروب إلى آخر الدنيا" تمثّل طور النضج في فن الكتابة القصصية عند هذه الكاتبة الشابة المتألقة.

آملين أن يحقّق هذه الإصدار إضافة جيدة للمكتبة العربية، وراجين كذلك أن يستمر تواصلنا مع كلّ المبدعين في وطننا العربي الكبير.

نادي الجسرة الثقافي الاجتماعي

الفِهْرست

١ – لحظة عشق.	٩
٢ – سعادة الرّوائيّة.	١٥
٣ – باميلا الصّغيرة.	١٩
٤ – عروس النّيل.	٢٥
٥ – دعوة زفاف.	٣١
٦ – الهروب إلى آخر الدّنيا.	٣٧
٧ – دعوة إلى الحبّ والحياة.	٤٥
٨ – أنامل ذهبيّة.	٥٣
٩ – عينا خضر.	٥٧
١٠ – كرنفال الأحزان.	٦٣
١١ – الملاك الأزرق.	٧١
١٢ – الغرفة الخلفيّة.	٧٧

١

لحظة عشق

"اللّه هو الحبّ " سمع جدّته تردّد هذه الجملة كثيراً. "الحبّ هو اللّه" قال رجل الطّائفة الدّينيّة التّي ينتمي إليها، برم شفتيه، ثمّ ابتسم باستخفاف، فهو لم يكن يؤمن لا باللّه ولا بالحبّ، كفر بهما؛ لأنّه لا يؤمن إلاّ بما يُلمس ويُشمّ ويُذاق، أمّا ما وراء ذلك فهو بالتّصديق به ضنينٌ، فهو مؤمن فقط بالملموسات والحقائق والنّظريّات العلميّة، لذا قليلاً ما بالى بالمشاعر والأحاسيس واللّحظات الجيّاشة، وكتب في أوّل كتبه في الإلحاد، وهو كتاب لاقى ضجّة عالميّة كبيرة (أين هما اللّه والحبّ؟) حتّى عندما زحف المرض إلى قرنيّتي عينيه، والتهمهما دون رحمة، تابع القضيّة على أنّها قضيّة علميّة بحتة، قرأ التّقارير، وراجع الأطبّاء، وبدأ يهيّئ التّرتيبات الجديدة لحياته المظلمة القادمة، وجاء العمى، جاء بارداً رتيباً، لا مبالياً بعجزه وتأوّبهاته وبغضبه، وساد الظّلام، أحسّ لأوّل مرّة بأنّه وحيد، تمنّى أن تمتدّ له يد من

الظّلام، يد دافئة تذيب صقيع العمى، أرادها يداً سماويّة جبّارة، كاد يتضرّع لقوّة عظمى اسمها اللّه، لكن من جديد تبدّدت هذه القوّة في نفسه، ولم تستطع مداركه المغلقة دونها أن تمتصّها، وأن تذيبها في كيانه.

وغدت الحياة رتيبة مظلمة ليس فيها إلاّ أصواتٌ لا تمتّ إلى ذاته بشيء، حاول جاهداً أن يقهر نفسه لتتعامل مع العمى على أنّه حالة خاصّة تحتاج لتدبيرات قاسية، لكنّه كان على خجل واستحياء وحيطة يتّصل بطبيبه ليسأل عن العمليّة التّي يترقبّها، فيجيب الطّبيب الإجابة التّي ألفها، وبات يأمل في كلّ مرّة أن لا يسمعها، يقول بصوتٍ وجلٍ هادئ: "لم يظهر مُتبرّعٌ بعد؟"

وجاءت اللّحظة، جاءت حارّة مثيرة بألوان زاهية، ولكنّها في طبق أسود مجلّل بالموت، فقد انتحرت شابّة صغيرة، وتركت في رسالة انتحارها أنّها تتبرّع بقرنيتيّها للمستشفى الذّي يقبع اسمه على رأس قائمة انتظاره للتّبرع.
وبعد عمليّة مألوفة وطويلة، عاد النّور إلى عينيه، وهما تحتضنان قرنيّتي شابّة أسرها الموت منذ أيّام، عادت الأشياء بألوانها وبريقها، وحملتْ بعودتها صورةً لا تفارق ذهنه، صورةً لفتاة سمراء صغيرة الجسد، كسيفة الوجه، هادئة الملامح، كانت صورتها تلحّ على مخيّلته دون رحمة، وتظهر أمام عينيه في كلّ الأماكن، وفي كثير من الأوقات، دون أن تسعفه الذّاكرة ليتذكّر أين رآها، في البداية كان

ينزعج من هذه الصّورة التّي تغشي عينيه، راجع طبيبه، الذّي قال له إنّ لا سبب طبّياً يُفسّر ما يرى، وإنّ عليه مراجعة طبيب نفسيّ، لكنّه ضرب صفحاً عن نصيحة طبيبه، وبات دون أن يقصد يألف السّمراء التّي تنزل في نور عينيه.

أشعّة الشّمس داعبت سمراء عينيه عندما دلفت سكرتيرته إلى مكتبه الفاره، وقالت له: "لا تنسَ يا أستاذ حكيم موعد اليوم."
تنبّه إلى جملة السّكرتيرة بلا مبالاة ،وقال: "أيّ موعد؟"
قالت السّكرتيرة ،وهي تراجع أجندة المواعيد: "اليوم السّاعة الرّابعة مساءً قد حدّدت لكَ موعداً حسب طلبك لزيارة والدة الشّابّة التّي تبرّعت لك بقرنيّتيها."
قال دون تحمّس: "نعم تذكّرت، هل جهّزت الزّهور التّي طلبتها لهذه الزّيارة."
– "نعم سيّدي . . . والسّائق في انتظارك كذلك."

أرادها زيارة قصيرة وسريعة، لكنّه شعر بروح غريبة تستحوذ على إرادته وحواسّه وهو يجلس في غرفة الشّابّة المنتحرة، كانت غرفة هادئة، يغلب اللّون الوردي على محتوياتها، جلس على كرسيّ مكتبها، كانت رسالة انتحارها ما تزال على المكتب، جلست والدتها المكسورة بأحزانها على طرف سريرها المرتّب إلى جانب طاقة الزّهور التّي جاءت مع الضيف الملحد، قالت الأمّ كاسفة دامعة: "كانت رقيقة كبسمة، كلّها حياة وحبّ وتفاؤل، كانت مصدر سعادتي

واعتزازي، لا أعرف لمَ انتحرت، كنت أنتظر منها الكثير من السعادة والعطاء."

حار فيما عليه أن يقول في هذه اللّحظة، أيشكرها ؛لأنّها وهبته قرنيّتي ابنتها؟ أم يغادر دون أن يلوي على شيء؟ صوت الأمّ قطع عليه تفكيره عندما قالت: "لقد وُلدتْ بقلبٍ مريض، كانت تعرف أنّها ستموت في لحظةٍ ما، سيتوقّف قلبها في أيّ لحظة؛ لأنّه أضعف من أن يستمرّ، لكن لماذا استعجلت اللّحظة؟ لماذا ؟ "

واستغرقت الأمّ في انتحابها، انتقل حكيم من مكانه إلى جانبها على السّرير، وأخذ يكفكف دموعها، من جديد عادت صورة السّمراء في عينيه، جحظت عيناه، وتسمّر مكانه، كانت عيناه مسلّطتين على صورة فوتوغرافيّة إلى جانب سرير المنتحرة، تتناول الصّورة، وبيدين متعرّقتين ومرتعشتين وقال: "من هذه السّمراء؟"

قالت الأمّ وهي تضمّد بمندلها الورقيّ سيل مخاطها المختلط بالدّموع: "هذه هبة . . .ابنتي المنتحرة." لقد كانت هي ، نعم، كانت هي السّمراء ذاتها التّي لا تفارق صورتها عينيه،

صمتتْ بعمق، غادرت الأمّ الغرفة التّي بقي فيها بعد أن استأذن بذلك، تعرّف على كلّ محتوياتها، كان في درج مكتبها الكثير من الرّسائل المعنونة بعنوانه، التّي لم تبعث أبداً، قرأها مرّة، وثلاث، وعشر، كان فيها حبّ كبير، عرف من أوراقها ومن دفتر مذكّراتها أنّها عملت معه لعام كامل في نفس المؤسّسة الصّحفيّة التّي يعمل فيها،

دون أن تكلّمه، ولكنّ كلّ كتبه ومقالاته كانت في مكتبها، عرف أنّها أحبّته، وعرف أنّها صمتت بقلبها المريض، الذي لا يتحمّل الانكسار، وتأكّد من ملفّاتها أنّها كانت تتابع حالته الصّحيّة، وأنّها تعرف أنّ أنسجتها تناسب أنسجته من التّحاليل المرافقة بوثيقة حالته الصّحيّة، وأنّها كانت تعرف أنّ الدّور له على لائحة الانتظار لأخذ القرنيّتين، وفي اللّيلة المناسبة انتحرت . . .

قرأ رسالة انتحارها، استطاع أن يفكّ كلّ طلاسمها، وعرف تماماً من تعني بجملة كتبتها في آخر رسالتها، قالت فيها: "عندما تنعم عيناك بالنّور، تأكّد أنّك نعمت دائماً بحبّي، أنا متأكّدة من أنّك ستقرأ هذه الرّسالة يوماً ما، وستعرف كم أحببتك . . ."

على مكتبها رأى نسخةً من كتابه المشهور، فتح الصّفحة الأولى، كان مكتوباً تحت العنوان تماماً ،وبخطّ نسائيّ رقيق: "اللّه هنا في قلبي". تناول قلمه الفاخر، وكتب في الصفحة ذاتها أعلى الكلمات التّي قرأ "إلى حبيبتي هبة . . . عاشقك إلى الأبد حكيم."

أقفل الكتاب، وأسند ظهره إلى الكرسيّ الخشبيّ الذّي يجلس عليه، دفن رأسه الأشيب ذا الشعر المتموّج بين يديه، وشعر لأوّل مرّة بأنّ اللّه والحبّ يسكنان قلبه، قاوم رغبة جارفة في البكاء، ثمّ استسلم لها دون خجل، وضمّ صورة هبة إلى قلبه الذّي بدأ يدقّ بانفعال وقوّة.

٢

سعادة الرّوائيّة

لم يكن يصدّق أنّه يقرأ كلمات مسطورة أمامه، كان يقلّب الصّفحة تلو الأخرى بسعادة أسطوريّة، مع كلّ صفحة كانت دقّات قلبه تتعالى، شعر بيديه تتعرّقان، وظمأٌ غريب يلفح حلقه، كانت سنونه الأربعون في مهبّ لحظات من الإثارة، لم يصدّق أنَّه يرى نفسه بكلّ جزيئاتها وتفاصيلها وعوالمها في كلمات امرأة لم يعرفها، ولم يقابلها في حياته، كم تمنَّى أن ينعم ولو للحظات بحبّ مثل ذلك الحبّ الذّي يقرأ عنه في هذه الرّواية، وبالتّحديد تمنَّى أن يمسك بصاحبة هذه الكلمات، أغلق الرّواية، أسند ظهره إلى أريكته الوثيرة، وتنهَّد عميقاً، طالع اسم الرّوائيّة التّي لم يسمع بها من قبل ، وخمَّن أنَّه يستطيع أن يجدها في لحظات، فدار النّشر التّي أصدرت الرّواية موجودة في مدينته، ويبدو أنّها من سكان العاصمة، كان بين مفترق طرق غريب، إمّا أن يحافظ على صورته، وعلى عالمه، وعلى اتّزانه،

وإمّا أن يهرع إلى الجنون، ويبحث عن صاحبة الرّواية. صمتتْ الحيرة برهة في دماغه المشحون بخلجات قلبه، وسريعاً ما توجه إلى الهاتف؛ ليطلب دار النّشر التي أصدرت تلك الرّواية.

كان ينتظر صوتها بعد أن حصل على رقم هاتف بيتها، تخيَّلــه صوتاً رقيقاً يفيض حياةً وشقاوةً ورقَّة، بل تمنَّــاه أن يكــون كــذلك؛ ليطابق صورة البطلة التي قرأ عنها في الرّوايــة، وأصــابت غفلــة الأمنية لحظة التّحقيق، فجاء صوتها رقيقاً عذباً، لا يملك من يــسمعه إلا أن يركض خلفه لاهثاً متمنّياً مأخوذاً بالرّوح التي تسكن صاحبته، حدَّث صاحبته طويلاً عن إعجابه بروايتها، وعــن تــأثّره بأحــداثها وشخوصها لا سيّما عن تأثّره ببطلتها، وكاد يقول لها أنَّه يعشقها هي بالذّات، وبعيداً عن قوانين الزّمان والمكان، ونواميس الأمــور، فهــو يريدها هي بالذّات، ويريد عشقها دون أيّ عشق آخر ،لكنّه قال لها:" إنّه يخال نفسه قد قابلها طويلاً، وعاش معها أجمل قصة حبّ."

كانت كلماته بها شيء من الصّدق، ولاقت هــوىً فــي نفــس الرّوائيّة، التي كتبت طويلاً عن الحبّ والعشق، ولكنّها لــم تــصدفه وجهاً لوجه، ولو مرّة واحدة، مع أنّها كانــت علــى أتــمّ الاســتعداد لمقايضة كلّ كلماتها السّحرية بلحظة حبّ صادقة.

سريعاً ما طلب لقاءها، كان يتوق إلى ذلك، بمقدار توق طفــل صغير إلى نجمة سماويّة بعيدة، قال لها:" إنّه عشقها قبل أن يلقاهــا،

وإنَّ روحه ألفت روحها، وإنَّه سيعرفها بمجرد رؤيتهـــا." ضـــحكت طويلاً؛ لأنّها كانت قد رأته أيضاً بقلبها. واتّفقا على أن يكون اللّقـــاء في حانوت جبليّ على قارعة طريق قديم، حيث يلتقي المتحابّون بعيداً عن أعين الفضوليّين، وحيث خطّت معظم فصول روايتها.

وكان اللّقاء . . . جاءت مبكّرة، جلست إلى طاولتها المعتـــادة، ابتسمتْ؛ لأنّها تعيش وجل مراهقة، وتقتـــات قلقهـــا، وكأنّهـــا شـــابّة صغيرة في العشرين، لحظات انتظارهـــا وشـــوقها أنـــستها ســـنينها الخمسين، وجسدها المضنى، وقسماتها المأسورة لتجاعيـــد الـــزّمن، ولكنها لم تنسها أن تلبس أفضل ما عندها من ملابـــس، وأن تنتعـــل حذاءً نسائياً كلاسيكياً أنيقاً، وإن كانت قد هجرت لبس أمثاله منـــذ أن أصابها داء المفاصل منذ سنوات.

وأخيراً دلف المنتظَر إلى المكان، لقد عرفته قبل أن تلمح بـــين يديه روايتها العتيدة، كان بنفس طول الرّجل الذي كتبـــت عنـــه فـــي روايتها،وبنفس سحره ونظراته، كادت تطير إليه، أليس هو الرّجـــل السّحري الذّي اصطادته كلماتها؟! كان في عينيـــه شـــوق غريـــب، استعذبت نظراته، وأمهلته حتّى يجلس إلى طاولة أمامها تماماً، كـــان موزّع النّظرات بين من حوله، وبين ساعته التّي يرقـــب عقاربهـــا، وبين قراءة بعض الصّفحات من الرّواية.

انتصبت الرّوائيّة، واتّجهت نحو رجلها الورقيّ، وقفتْ قبالته تماماً، وأرادتْ أن تمازحه، فقالت: "عفواً أنت قد جلست مكاني!"

حدّق الرّجل في وجهها، قدّرت أنّه عرفها، وكادت ابتسامة

ارتسمت على وجهها أن تتّسع، لكنّها تبدّدت سريعاً، عندما جمع الرّجل أوراقه وروايته ونفسه، وانحنى معتذراً، وابتعد متخذاً كرسيّاً آخر له، في انتظار سعادة الرّوائية.

أدركتْ الرّوائيّة أنّه لم يعرفها، وأنه لم يكن ينتظرها هي، بل كان ينتظر فتاة الرّواية، لم ينتظر سيّدة في السّتين تحلم بالحبّ، بل كان ينتظر فتاة صغيرة، وهبتها الطّبيعة من الجمال والرّقة والأنوثة ما لم تهبه لأحد، جلست حيث كان الرّجل جالساً، وحدّقت بالأرض طويلاً، عندما رفعت رأسها بعد ساعة أو ساعتين كان المكان قد خلا من الرّجل الذي أنهكه الانتظار لسعادة الرّوائية.

قررتْ أن تعود إلى البيت سيراً على الأقدام، سبقتها دموعها، وعندما خلت بنفسها في أحد البساتين، أجالت نظرة عجلى في المكان ثم صرخت بحنق وقالت: "لماذا؟ . . . لماذا؟"

في المساء كان صوتها كسيراً وهي تتلقَّى مكالمةً غاضبة من الرّجل الذّي عاتبها بمرارة قائلاً: "لماذا لم تأت يا سعادة الرّوائيّة؟ أنت بدون قلب". حاولت الرّوائيّة أن تبتسم، لكنّها لم تفلح في ذلك هذه المرّة، وقالت له، وهي تعرف أنّ كلماتها دون جدوى: "أتصدّق أن سعادة الرّوائيّة جاءت . . . ولكنّك أنتَ من لم تحضر. . . الوداع".

٣

باميلا الصّغيرة

"باميلا الصّغيرة . . . حبيبتي الصّغيرة . . . سامحيني . . . هل ستسامحني يا عزّت؟ . . . آه . . . لا . . . لا يمكن أن تموت حبيبتي الصّغيرة . . . عزّت". وانتحبت من جديد في حضن زوجها، الذّي ضمّها إلى صدره ،الذّي كان موت باميلا ضربةّ نجلاء في سويدائه، تمنّى لو أنّ هذه المقبرة تتّسع ،وتتباعد أرضها ؛ليخلو له وجه باميلا الغارق في الجسد المسجّى بسلامٍ في التّابوت إلى جانب شابٍّ حليق، كانا يشكّلان لوحةً فسيفسائيّة جنائزيّة بيضاء، كانا عاشقين صغيرين في الحياة، وها هما يتقاسمان التّابوت معاً، كانت باميلا الصّغيرة شاحبةً جدّاً بالأبيض، تأمّلها المحامي عزّت طويلاً، كانت هادئةً كما لم يألفها في الحياة ، تأمّل يديها الصّغيرتين طويلاً، شعر بأنّ قلبه يُشدّ إلى مسامير حديديّة تمزّقه دون رحمة وتابوتها يُنزل إلى قاع الحفرة المعدّة له ، ومن ثمّ بدأ الحفّارون بإهالة

التّراب عليه، أمّا هو فقد ودّعه بوردةٍ حمـــراء مـــن الحديقـــة الخلفيّة التّي لطالما اعتنت باميلا بها، ولطالما ساعدها فيهـــا، وهـــو يرقبها تنمو، وتتفتّح، ويتضوّع أريجها شأنها شأن زهور الحديقة.

كانت طفلته المفضّلة، هو من لقّبها بلقب باميلا، وهي بطلة فلم رومانسيٍّ مشهور، كانت تملك مثل ابتسامة باميلا، كانـــت بـــاميلا أو بيان طفلةً صغيرةً عندما تزوّج أمّها، بعد أن اختفى والدها في البحر، أحبّها كما لم يحبّ أحداً، كانت رقيقة، يكفي القول إنّ حياتهـــا كانـــت عبارةً عن زهورٍ تزرعها في كلِّ مكان، كانت هادئة ومطيعة إلى أن دخلت المدرسة الثّانويّة، وتعرّفت على ذلك الشّابّ المـــراوغ الـــذّي يكبرها بعامين فقط، ويعمل ميكانيكيّاً.

لقد هامت بفتاها حبّاً، ومنذئذ غدت باميلا المشاكسة، حـــاول أن يساعد والدتها في إبعادها عن ذلك الشّابّ الشّرير، لكن دون جـــدوى، بل إنّه حرّض زوجته على تقديم شكوى ضدّ ذلك الشّابّ اللّعين على اعتبار أنّه يتعرّض لقاصر، ولم يَسمح له بأن يخرج من الـــسّجن إلاّ بعد أن تعهّد بترك زهرته الصّغيرة وشأنها.

لكنّ الأمور عادتْ وساءتْ من جديد عندما أعلنت باميلا عـــن رغبتها في الزّواج من عاشقها الصّغير، وتفجّرت مواجهات رهيبـــة بين الشّابّين وبين عائلتيهما، وانتهت المواجهـــات بانتحـــار الـــشّابّين الصّغيرين احتجاجاً على موقف عائلتيهما، بعد أن تركت باميلا رسالةً تقول فيها إنّها لن تستطيع أن تعيش بعيداً عمّن تحبّ.

عيون الحاضرين وهم يشيعون بأسى التّابوت الذّي كاد يغمره التّراب تمنّت لو أنّها أسعدت الشّابّين، وتركت لهما فرصة الحياة، ولم تخنق قلبيهما، ولم تهديهما للموت، كان يبدو من نظرات المحامي عزّت ومن دموعه أنّه كان أشدّ من يتمنّى هذه الأمنية الضّائعة والمتأخّرة، وفي البعيد حيث الغروب لاحت ابتسامتها البريئة في الأفق، فتقطّعت نياط قلبه، التّي علّقت له مشنقةً دامية تتدلّى من السّماء.

وابتلعت المقبرة ضيفيها الصّغيرين، وحلّ المساء ساكناً رهيباً، إلاّ من صوتِ نعلَيْ عزّت الذّي عاد مكسوراً يحمل فأساً كبيرة، كان مصمّماً على أن يخترق التّراب، لينتزع باميلا من حضن حبيبها الصّغير، ويضمّها إلى صدره كما اعتاد دائماً، كان يكره فكرة أنّها في حضن رجلٍ غيره، بعبارةٍ أدقّ كان يغار عليها حتّى من الموت، صحيحٌ أنّها كانت طفلته لزمنٍ طويل، لكنّها منذ عامين وقهر أنفه غدت امرأة أحلامه، نعم غدت صبيّة صعبة المنال، كان يحترق حسراتٍ في ذهابها وإيابها، ولولا أنّه يقيم معها في بيت واحد بحكم أنه زوج أمّها لكان جُنّ شوقاً إليها، كان يريدها إلى جانبه لا شيء أكثر، مع أنّه حاول أن يقرّب شكواه ووجده منها، لكنّ الكلمات كانت تستعصي عليها، كان يخشى أن يخسرها ،و أن يخسر أمّها إلى الأبد، مع أنّه لم يكن يبالِ بخسارة أمّها إلاّ لأنّ ذلك يعني خسارتها هي بالذّات، كان يتوق إلى أن يسمعها تقول له حبيبي، مرّةً قالتها على

سبيل تودّد الابنة لأبيها، لكنّه شعر بأنّها كلمة حبٍّ طبيعيّة، تخرج من فم امرأةٍ لرجلٍ يحبّها، وتمنّى أن يأتي اليوم الذّي تقولها له وهي تعنيها بكلّ ما فيها من معنى، ولكنّ ذلك اليوم لم يأتِ بسبب ظهور ذلك الشّابّ الغبيّ، الذّي اغتال أحلامه، لقد سرق قلب باميلا، وعقاباً له سرق عمره وعمرها، لقد دبّر كلّ شيء لتبدو حادثة انتحار، وبدت كذلك، لكنّه الوحيد الذّي كان يعلم أنّها جريمة حبٍّ بشعة، عندما كانت باميلا تنزف أنفاسها الأخيرة، ندم كثيراً، وفكّر في أن يطلب لها المساعدة، لكنّ الوقت كان قد تأخّر، حاول أن يطبع قبلة وداعٍ على شفتيها الكرزيّتين، لكنّها أشاحت بوجهها المضنى، توسّل إليها في لحظاتها الأخيرة أن تقول له كلمة حبيبي، لكنّها ضنّت عليه بهذه الكلمة حتّى في آخر لحظاتها، وماتت دون أن تدرك كم أحبّها!

"باميلا . . . أيّتها الصّغيرة المشاكسة، أنا أحبّك . . . اللّعنة عليك، أكان يجب أن أقتلك كي تدركي كم أحببتك؟!! باميلا . . . أحبّك . . . أحبّك . . . لا . . . مستحيل . . . لا ترحلي وتتركيني وحيداً".

ردّدت المقبرة كلمات المحامي التّعس الذّي انكفأ يحفر بفأسه تارةً، وبيديه تارةً أخرى، في لهفةٍ عارمة تشبه لهفة هائمٍ على جيفة.

في الصّباح كانت المقبرة هادئةً كعادتها، وإن تعكّر صفو هدوئها بسبب جلبةٍ حدثت بعد اكتشاف جثّة المحامي عزّت إلى جانب قبر

باميلا في اللّيلة الماضية، الطّبيب الشّرعي قال إثر تشريح الجثّة إنّــه مات ليلاً بسبب ذبحةٍ صدريّةٍ شديدة.

في ظهيرة ذلك اليوم دُفن عزّت إلى جانب قبر باميلا، فقد كان الأب المفجوع، الذّي مات حزناً على ابنته التّي انتحرت منذ يــومين، هكذا اعتقد النّاس، وقف الكثيرون على قبره، وحزنوا للمأســاة التّــي حلّت بالأسرة الهادئة الطّيّبة التّي لطالمــا أحبّوهــا، وتمنّــوا لــو أنّ مكروها لم يحدث لها، كذلك تمنّت الزّوجة المفجوعة بابنتها وزوجها لو أنّها أطلقت العنان لقلب ابنتها، لعلّها لو فعلت لما كانت تقــف الآن بين القبور لتودّع أحبّتها . . . تنهّدت؛ لأنّها تعلم أنّ لا حيلة للأمنيات حيال الموت.

وغادرت المقبرة التّي صكّ الهواء بابها القديم، فأطلقت صريراً حزيناً، طوّق القبور، ومن جديد ابتلعت المقبرة سرّاً جديداً، ومزيــداً من الأحزان والخطايا.

٤

عروس النيل

تفوق بجمالها جمال (حتحور) إلهة الجمال والحبّ المصريّة التّي تحمل اسمها، في عميق تجويف عينيها ترى ليلاً نيليّاً صافياً، تتهادى فيه جنادل ونجوم، وتطفو على أحلامه ودموعه أزهار النّيل الجميلة، التّي تُراقص صفحات النّيل التّي يضطرب ماؤها مطالباً بعروسه السّنويّة.

في المعبد ركعت عند قدمَيْ تمثال الإله (رع)، وتوسّلت إليه ليقبل بها عروساً لنيله الغاضب، الذّي يجدّد غضبه كلّ عامٍ مطالباً بابتلاع جمالٍ مصريٍّ جاء على هيئة عذراء حسناء، تضرّعت (لرع) كي يهدي عذريّتها للنّهر العظيم، كان جسدها يشتهي أن يحتويه الجسد المائيّ الأعظم؛ لتحتوي ذلك المجهول، بكت، فغسلت دموعها قدمَيْ تمثال (رع) ، ولامست أطراف شعرها الشوكيّ المستعصي بلاط المعبد ، جسدها كابٍ على الأرض بركوع يشبه ركوع ظبيةٍ ، ركوعها كان

فاتناً، ثوبها البرتقاليّ كقرص شمس تتأهّب لمخاض لم ينجح في أن يطوّق أعضاءها البضّة المنفلتة منه بكبرياء، فخـــذاها اللاّمعـــان وثدياها النّاهدان كبرديّةٍ سحريّة لفتا نظر الكاهن الأعظم، الذّي تمنّى جمالها الأسمر الأخّاذ، وحلم بارتشافةٍ منه، عرض عليها أن تكـــون من نساء المعبد، لكنّها أبت، وقبّلت يديه طالبةً أن يختارهـــا عروســـاً للنّيل، كان غضب النّيل يعني الكثير عنده، لكنّ اشتهاء دمه لها كـــان أشدّ من خوفه من غضب الإله (رع) نفسه، لكنّها أبـــت إلاّ أن تهـــب عذريتها للنّيل الغاضب الذّي يهـــدّد باجتيـــاح الأراضـــي وإغـــراق المزروعات والمصريين.

استجاب لطلبها ولهفةٌ في نفسه لم تقضَ، كان موكباً عظيماً ذلك الذّي احتواها في طريقها إلى عريسها المائيّ الغاضب، كانت غارقـــة في ثوبها القطني الأبيض الموشّى بخيوطِ الذّهب، ومحـــلاّة بالمـــاس واللّؤلؤ، شعرها الشّوكي مزيّن بالأصداف ونفيس الجواهر، وعيناهـــا غارقتان في الكحلة السّوداء التّي تزيد من اتساعهما السّاحر، وتظهر أحزانهما، كما تظهر فيهما دمعة لا يُعرف لها معنىً، كانت محمولةً على محفّة ذهبيّة مكللّة بالزّهور، ترتقي أعناق العبيد المشاة العـــراة، وأمامها طائفةٌ من الكهنة والسّدنة على رأسهم (تي) كبير الكهنة، ومن حولها الجواري والحسناوات، ومن ثمّ باقي أهالي البرّ الذّين خرجـــوا ليشهدوا ابتلاع النّيل لعروسه الحسناء.

وفي صفحة عينيها الهادئتين، اللّتين تعكسان زرقة النّيل الهائج

المسوّر بجموع الأهالي الذّين جاؤوا من أصقاع بعيدة ليشهدوا هذا اليوم السّنويّ، لمحت أمّها وأباها وأختيها الصّغيرتين، كان في وجههم حزنٌ واضح واستسلام لمشيئة الإله (رع) الذّي اختار ابنتهم لتكون عروساً لنيله المقدّس، مع أنّهم لم يكونوا ليُفلحوا في إخفاء فخرهم بأن تكون ابنتهم سليلة العائلة البسيطة العاملة في صناعة الأواني القشّيّة صاحبة الحظّ السّعيد في اختيار (رع) لها لتكون عروسه لهذا العام.

خواتمها الذّهبيّة التي دُسّت صباحاً في يديها من قبل الماشطات اللّواتي تصدّين طويلاً لتجميلها وتطييبها لتليق بليلتها المشهودة، كانت تثقل يديها الصّغيرتين اللّتين اعتادتا على مداعبة القشّ، وثنيه لصنع السّلال. فما أجمل صنع السّلال! إذا كان في ذلك فرحةٌ بلقاء الذّي تهوى وتعشق، عرفته منذ سنين، كان مهاجراً من النّوبة، أغرق النّيل في بعض صولات غضبه قريته، واختطف أبويْه، ليلفظهما بعد أيّامٍ جيفتَيْن متحلِّلَيْن، قَدِم حافياً شبه عارٍ، جسده القويّ، وعضلاته المفتولة جعلت والدها يطمع في استئجاره، ليعمل معه في دكّانه، لعلّه يكون ابناً له عوضاً عن الابن الذّي فشلت تعاويذ السّحرة والكهنة ووصفات الأطبّاء في استيلاده من أمّها التّي أجدبت مبكّراً دون سبب معلوم، رحّب النّوبي الأسمر بعرض المصريّ؛ لأنّه كان في أمس الحاجة إلى مكان يأويه ، واهتمامٍ يشمله، وبدأت القصّة، كانت قصّةً مثل كلِّ القصص. وربط الحبّ بين قلبها وقلبه، وتاقت نفساهما إلى الالتحام، وكاد يكون ذلك ، فقد رحّب

والدها بالعريس الأسمر الذّي سيغدو ولداً دائمـــاً لـــه، لا ولـــداً مأجوراً بالمال، ورحّبت الأمّ بالصّهر الذّي سيبدد صحراء ابنتها، لكنّ النّيل الآثم لم يرحّب بسعادتهما.

لقد كان حبيبها في رحلة بحريّة إلى بلاده ليدعوا من بقي مـــن أعمام وأخوال إلى زفافه على المصريّة السّمراء عندما هاج النّيـــل، وقلب قاربه الصّغير، وقدّمه طعاماً ليّناً شهيّاً لتماسيحه المتوحشّة التّي يستفزّها القرم، شبعت التّماسيح ليلتها، وغاب من أحبّتْ.

لم تكن سعيدةً بعريسها النّيليّ المنتظر بعد انتهاء مراسيم تقديمها له، بل كانت تكرهه، ولكنّها أرادت أن تطعم نفسها لتماسيحه التّي ازدرت حبيبها، لعلّ أشلاءها ومزق لحمها تلقى مزق جسده، وتهنأ بجواره ولو لمرّة واحدة، لم يكن للحياة طعمٌ من دونه، بل لم يكن لها مبرّر، لم تكن تعدّ نفسها عروساً للنّيل الأعظم الذّي لم يرفق بقلبها، بل كانت عروساً لحبيبها المتلاشي، أرادت أن تلقاه بحفلةٍ لها أبّهة وجلال كالتّي كان يحلم بها في الماضي، ويقصّر فقره دون أن يحظى بمثلها، جاءت تلبس الأبيض ،وتتهادى على محفّة ذهبيّة، تسبقها التّرانيم المقدّسة، وتتبعها الموسيقات الفرحة والرّقصات المثيرة.

اعتلتْ المنصّة التّي كانت معدّةً لها كي تهوي منهـــا إلـــى حضن عريسها النّيل، كانت منصّة ممتدة في لسانٍ صخريٍّ إلى وسط النّيل، تعالت التّرنيمات، وجحظت العيون ، ووقف الكلُّ ينتظر

حركتها الأخيرة لتهوي إلى الماء، ألقت نظرة وداعٍ على والدتها وأبيها وأختَيْها، ومن دون قصد التقت عيناها بعينَيْ كبير الكهنة الذّي كان يذوب حسراتٍ لضياع الجميلة الفاتنة من يديه، ارتدّت عيناها إلى نحرها حيث علقت فيه ورقة بُردي قديمة، فضّتها من دون عجل، والعيون ترقبها بفضول، كان مكتوبٌ عليها بخطٍّ فتاها النّوبيّ : " حتحور.. أنا أحبّك، ماذا عنكِ ؟"

طوت رسالتها الخطيرة، ضمّتها إلى صدرها ،وقالت بصوت ليس بالخفيض، وإن لم يجد النّيل صعوبةً في ابتلاعه قبل أن يسمعه أيّ شخصٍ قريبٍ من المنصّة: "وأنا أحبّك .. يا .. انتظرني، أنا عروسكَ .. أنا قادمة إليكَ".

وقفزت في الماء، تعالت التّرانيم والموسيقات، واختفت الحلقات المائيّة حيث انزلقت حتحور، وهدأ النّيل بعد أن نال عروسه الحسناء.

٥

دعوة زفاف

لأوّل مرّةٍ يلتقيان دون خوف، دون أن يخشى من عين فضوليّةٍ تشي لزوجها بعلاقتها مع أستاذها العتيد، ودون أن يخشى من أن تفضحه الألسن، وتلوك قصته الأفواه، ودون أن يرى شكّاً في عينَيْ زوجته، إنّها المرّة الأولى التّي يلتقيان فيها في هذا المكان، مع أنّهما التقيا فيه من قبل في نفس المكان، وعلى نفس الطّاولة مئات المرّات، لكن لهذه المرّة طعم خاص.

كالعادة كانت جالسةً إلى طاولتهما التّي اعتادا أن يطلبا من نادل المقهى الوحيد أن يخرجها ، ويضعها لهما في حديقة المقهى، قرابة شجرة جوريّ الورديّة الزّهور، تجلس قبالة الباب تماماً لتراه حين يطلّ على المكان، فهي تعشق رؤيته ينسرب نحوها مشحوناً بهاجس الحديث معها، يقترب منها كعادته، وينكفئ برويّة تستعجلها الأشواق، ويطبع قبلةً على يدها، في لحظات تشعر بأنّها أميرة من

عصرٍ غابر، وهو فارسها المستعدّ دائماً لمحاربة الدّنيا من أجلها.

تلبس الأبيض الذّي تحبّه ويحبّه، وإن كان زوجها يبدي تبرّماً به، تغرز كوعها الصّغير في زجاج الطّاولة التّي أمامها، وتقرأ له طالع يومه في فنجان القهوة الذي تطلبه له قبل أن يأتي، وفي النّهاية يكون في انتظاره، بعد تحديقٍ في قعر الفنجان الموشّى بليل القهوة، تقول له بابتسامتها: "كالعادة في طريقك واحدة تلبس أبيض، تحبّك حدّ اللاّ حدّ، وهي أمامك الآن تنظر في عينيك".

لم يسرقا اليوم نفسيهما كالعادة من عالميهما، بل جاء كلٌّ منهما وقد أعلن للعالم كلّه أنّه سيكون مع من يحبّ، ولن يفترق عنه أبداً؛ لأنّه لم يعدْ يخشى أيّ قوّةٍ في الأرض، لا يخشى إلاّ البعاد.

عرفا أحدهما الآخر بعض قبل أشهرٍ طويلة، قابلها كما يُقابل الغرباء، كانت تجلس في الصّفّ الأوّل في القاعة التّي سيلقي فيها محاضرته اليوميّة ،لمدّة فصلٍ كامل كان هو من سيلعب دور الأستاذ الجامعيّ في لعبةٍ غريبةٍ على مسرح الحياة، لكنّ كلاهما كان يشعر بأنّ له دوراً مميّزاً مع الآخر، وصدقت الرّؤيا، وكانا توأماً روحيّاً لا يعرف الانفصام.

جاء إلى عالمها، فنسف زوجها من قلبها، ولم يُبقِ منه إلاّ الاسم والجسد، وجاءت إلى عالمه، فأصبحت زوجته وبناته الثّلاث خيالات تجوس في دنيا نورها الذّي يغشاه. عاشا ملحمةً طويلةً من التّخفّي والهروب، ولكنّ السّرّ انكشف في النّهاية، طالبت زوجته بالطّلاق،

فطلّقها معتذراً لها، وإن كان يعلم أنّ الاعتذار لن يعيد لها السّنوات الضّائعة، ولن يعوّضها عن زوجها، الذّي هجر بيته، وانزلق في حضن أخرى، كان حزيناً، وموزّعاً، لكن متأكّداً من أنّه ولأوّل مرّةٍ يَختار ولا يُختار له.

أمّا هي فقد وُصفت بالخيانة والغدر والتّردّي، طلبت الطّلاق، فرفض زوجها المكلوم بكرامته وشرفه أن يفعل ذلك نكايةً بها، ولكنّها أصرّت على الطّلاق على الرّغم من تنكّر عائلتها لها، وتوجّهت إلى المحكمة، تطلب حكماً يرأف بقلب امرأةٍ خانت أعراف المجتمع، ولكنّها وفت لمشاعرها ولحبّها.

. . . ونالا الحريّة . . . كان أوّل لقاءٍ ليديهما بحريّةٍ أمام المحكمة، ارتقيا سيّارته وهما يشبكان يدَيْهما اللّتين تحملان حكم طلاقها، لقد تنازلت عن كلّ حقوقها مقابل هذه الورقة، ولكنّها سعيدة، اشترت حرّيّتها بأوراق ماليّة كثيرة، قرّرا أن يكون مقهاهما السّرّيّ أوّل قِبلةٍ لهما، جلسا إلى طاولتهما، أخبرا رامز نادل المقهى الذّي لطالما شهد دموعهما ورجاءاتهما أنّهما أخيراً حرّان، وكان أوّل من دعياه إلى حفلة زفافهما.

طلبا منه ورقةً بل أوراقاً ليدرجا فيها أسماء الذّين يريدان دعوتهم إلى حفل زفافهما، وطالت القائمة حتّى استغرقت أوراقاً، فكّرا في أن يكون البحر مكان الحفل، ليدعوا كلّ سكّان الدّنيا، لكنّهما سيحتاجان إلى ملايين الدّعوات والدّعوات، في ورقةٍ أخرى

رسما نموذجاً لشكل دعوات الزّفاف، أنفقا اليوم بطوله يخطّطان لحياتهما، ويرسمان أدقّ تفاصيلها وجزيئاتها، خطّطا لبيت المستقبل، ولمكان شهر العسل، وللون غرفة النّوم، ولعدد الأبناء المنتظرين،ولأسمائهم.

تذكّرا أنّهما لم يأكلا طوال اليوم، تقلاّصات معدة كلٍّ منهما ذكّرتهما بإلحاحٍ بذلك، اختارا أطباقاً لم يأكلاها من قبل، أرادا أن يدشّنا بها حياةً جديدةً، دقائق وكانت الأطباق تتهادى أمامهم، اللُّقيمات الأُوَل كانت سريعة، ومتبادلة، كلٌّ يطعم الآخر، ولكنّهما تذكّرا أن لا داعيَ للعجلة، فقد ذهب زمن الخوف، وما عادا يسرقان الزّمن من أحد، أمامهما وقت حتّى الصّباح لإنهاء العشاء، أسعدتهما الفكرة، وأخذا يقهقهان . . .

رنين جهازه المحمول قطع عشاءهما، تقلّص في مكانه عندما طالع اسم المتّصل، فتح الخطّ، وأجاب إجاباتٍ مقتضبة، عندما أغلق الهاتف كانت هي الأخرى تطالع ساعتها، قال لها: "يجب أن أغادر، لقد نسيتُ أنّني وعدتُ زوجتي والبنات بعشاءٍ في المطعم الصّينيّ".
أومأت بحاجبيها أنّها تفهم، وقالت: "وأنا أيضاً تأخّرت".
قال لها: "هل أوصلك إلى البيت؟"
ردتْ بقلق: "لا، أخشى أن يكون زوجي بالقرب من البيت، فيلمحني".

قال على استعجال، وهو يضع الحساب في أحد الأطبـــاق الفارغـــة: "إذن نلتقي غداً".

قال بنبرةٍ حالمة: "نعم نلتقي غداً".

قال وهو يغادر: "غداً سنتخيّل أنّك في مخاض الولادة تضعين مولودنا الأوّل".

ابتسمت ،وقالت وهي تتحسّس بطنها: "لكن يجب أن نختار مكاناً بعيداً ومعزولاً كي ألد وأصرخ على راحتي . . ."

٦

الهروب إلى آخر الدّنيا

خلعت الخاتم الذّهبيّ الذّي يخصّه، وألقت به من نافذة سيّارة الأجرة التّي استقلّتها في طريقها إلى المطار، أخيراً تخلّصت منه، سنوات طويلة وهي أسيرة خاتمه، كرهته زوجاً، كلّما رأته وحدّقت في جسده المسجّى إلى جانبها، تذكّرت أنّه بديلٌ مسخٌ لمن أحبّت، كان بملامح غير مغرية، وجسده ليس بالغضّ ولا بالممترع، يفهم الزّواج على أنّه عطاء وعطاء وعطاء وتلبية حاجات ورغبات، وماذا عن الحبّ؟ لقد رحل مع ذلك الفتى الّذي أحبّته لسنين طويلة، ثم رحل دون أن تعرف وجهته؛ ليبحث عن فرصة ما، وطال الغياب، وفقدتْ الأمل في أن يعود، ومرّتْ السّنون بها لتلقي بها في حضن رجلٍ متكوّر البطن، ذي شهادة عليا، وحياة كريمة، وأخلاق هادئة.

كانت حياتها معه رتيبة للغاية، وهادئة للغاية، لقد خانته عشرات المرّات، فقط لأنّها حاقدة على بلادته وعلى هدوئه وعلى

رضاه عن كلّ شيء، لم يبال إن كانت سمينة أم نحيفة، لم يبالِ إن حملت أم لا؟ لا يشتهيها دون أن تشتهيه، لا يمنعها من زيارة، لا يتدخّل في حياتها، لا يحتجّ على سلوكيّاتها، هو موجود فقط لدعمها وتوفير الحماية لها، اللّعنة عليه، فهو لا يعرف معنى الاحتجاج؟! لم يغضب يوماً منها، لم ترتعد لحظةً خوفاً من أن تفقده، لم تضبطه لحظة يتسلّل بنظراته إلى امرأة، لم يجعلها ليلة تنام باكية، لم تعرف معه غِيْلة شكّ، ولا نظرة ريبة، كان يراها ملاكاً، ويفاخر بها الأصدقاء، حتّى طهوها الذّي تعلم تماماً أنّه فاشل كان يستلذّ به، ويشيد بميزاته المزعومة.

أمام النّاس والأقارب والصّديقات اللّواتي فاتهنّ قطار الزّواج كانت تفاخر به، وتدّعي الوفاء والإخلاص، وتجيد تمثيل دور الزّوجة المحبّة، لكنّها تكرهه، تكره جسده، تكره أنّه قد وُهب كلّ هذا الحظَ في الحياة ليمتلكها هي، في حين حُرِمَ من أحبّت من أيّ حظّ، فسافر إلى البعيد، ولم يعد.

كانت راضية؛ لأنّها لا تملك غير الرّضى، إلى أن تلقّت مكالمة قلبت كلّ حياتها، كانت مكالمة من الذّي هجرها من سنوات، كانت مكالمةً تحمل كلّ مشاعر في آن: البشر الحبّ، الكره، الحقد، الغضب، الرّجاء، التّسامح، العشق، الرّغبة، كانت تحمل حتّى تلك المشاعر البشريّة التّي لا يعرف البشر اسماً محددّاً لها، ولكنّها تأتي متدفّقة متناقضة، فتسعد وتتعس في لحظة واحدة.

وانتهت المكالمة بلقاء، واللّقاء بآخر، والآخر بفراش، وعادت الأشواق، لم تكن حزينة بخيانتها بقدر ما كانت تخشى أن تفضح، ولكنّ شعوراً يحمل رثاءً لزوجها الطّيّب كان يقفز من لحظة إلى أخرى إلى سويداء قلبها المسكون بالقادم من البعيد.

كان حبيبها بنفس شباب وجمال الماضي، ولكنّه أكثر ثراءً وأوسع خبرة وَفْق ما يدّعي، وإن لم يدفع الحساب ولا مرّة واحدة في أيّ مكان ذهبا إليه، وبقي الوضع شأنه في ذلك شأنه في الماضي، يأكلان ويشربان، وتحاسب هي، لم تبالِ بذلك، فقد كانت سعادتها به أكبر من كلّ النّقود، وإن كانت صورة مقارنة عجيبة بينه وبين زوجها بقيت تلحّ على ذهنها.

كان زوجها مستغرقاً بمتابعة برنامج أفلام كرتون للأطفال عندما قرّرت أن تهجره، كانت قد حضّرت حقائبها، وحزمت أوراقها الرّسميّة والثّبوتيّة، وتأكّدت من جمع كلّ قطع مجوهراتها التّي أهداها زوجها إيّاها في مناسبات مختلفة، انتصبت قبالته، وقالت له ببرود: "طلّقني، أنا مسافرة إلى آخر الدّنيا، لم أعد أطيق المزيد، أريد أن أكون في أبعد نقطة عنك".

خفّض الرّجل صوت التّلفاز بالمتحكّم الإلكترونيّ الذّي يحمله، وقال وكأنّه كان يتوقّع هذه اللّحظة من قرون: "هل ستسافرين وحدك؟"

أجابت بنبرة حادّة على خلاف تلك النّبرة الهادئة التّي اعتادها

النّاس، والتّي جذبت الكثير من الرّجال إليها: "لا، بل مع رجل أحبّه".

صمتَ زوجها، ووزّع النظرات بينها وبين حقائبها: "لم تكوني في حاجة إلى الهرب حتّى آخر الدّنيا حتّى تهربي منّي، كان يكفيك أن تخبريني برغبتك حتّى أُحققّها لكِ".

لم تعر كلماته أيّ اهتمام، واستدارت بعد أن انحنت وحملت بيديها الاثنتين حقيبتين كبيرتين، وخطت خطوتين باتّجاه الباب الذّي يفضي إلى الحديقة الخارجيّة، صرخ فيها قائلاً: "انتظري، هناك شيءٌ يجب أن تأخذيه معك."
وقفت في مكانها دون أن تستدير، وقدّرت من صوت خطواته أنّه قد دخل إلى غرفة المكتب، وغاب لحظات، ثمّ عاد يحمل ورقة دسّها في حقيبة يدها، وقال بحزن لم تدرِ أنّه يملك مثله: "ستحتاجين إلى هذا".

رمقته بنظرة أخيرة ، وقالت ببرود وقسوة: "سأنتظر ورقة طلاقي، ابعث بها إلى بيت أمّي".
صمتت، ولم تعد تسمع أيّ صوت له، لكنّها لم تبالِ، وكان صوت الباب الذّي صكّته خلفها أخر عهدها ببيتها المهدوم الذّي تحلم أن تحيي على طلله حبّاً مشروخاً، لا زالت الذّاكرة تحلم به.

وصلت إلى المطار ، جلست في مقصورة المغادرين تنتظر موعد طائرتها ، التّي أزف موعد إقلاعها ، كانت تتفقّد أوراقها الثّبوتيّة عندما لمحت تلك الورقة

التّي دسّها زوجها في حقيبتها قبل أن تغادر، بدافع الفضول التقطتها من قعر الحقيبة لتعرف ما فيها، كان ورقها مألوفاً لها!! فتحتها، وعندها سقطت السّماء على الأرض على رأسها، لقد كانت شيك بقيمة خياليّة تكفيها حتّى آخر العمر، لقد كان الشّيك بقيمة كلّ ما يملك زوجها، فهي تعرف تماماً مقدار ما يملك بحكم أنّ رصيدهما مشترك، وإن كان دورها في الإنفاق من هذا الرّصيد يختلف عن دور الزّوج في تمويله.

شعرت بأنّها تكاد تختنق، وبأنّ غشاوة على عينيها قد غادرتها، أحسّت بالدّنيا تدور، والمطار والنّاس يختفون، وهي تحلّق بمقعدها في السّماء، كانت تائهة وسعيدة في لحظة واحدة، قلبت الشّيك، كان مكتوباً عليه بخطّ صغير مرتجف : " مع حبّي ".

شدّت بقبضتها على الشّيك، فتجعّد في يدها التّي فقدت منذ زمن قليل خاتمها الذّهبيّ، افتقدت ذلك الخاتم بشدّة، "يا لي من حمقاء!". قالت بحزن وندم، كانت تحدّث نفسها، وكان المكان فارغاً خلا منها ومن أنفاس زوجها التّي خيّمت على روحها، " ما أشد حمقي! لقد كان الرّجل الذّي يجب أن أعشقه بين يديّ لأعوام، ولم أعلم بذلك، كنت أعيش حالة حبّ، ولم أعرف بذلك، لماذا؟ لأنّني حمقاء، لا تعرف النّكهة الحقيقيّة للأشياء . . . أنا زائفة، ولا أعرف غير الزّيف" . . . صمتت ، ثمّ أجهشت بالبكاء في قاعة المغادرين، من جديد علا صوتها قائلة : "أنا أحبّ . . .أحبّ بشدّة،

أحبّ زوجي".

كانت تحاول أن تكتم تأثّرها وانفعالها، وطفقت تكفكف دموعها، وهي تدسّ قطعة معدنيّة في حصّالة الهاتف العموميّ. لتجري مكالمتها، لأكثر من مرّة كرّرت طلب الرّقم دون مجيب، وأخيراً ردّ صوت رجل باتت لا تعرفه، اسمه حبيبها السّابق، قالت له بعجل من سيُعدم: "أنا لن أحضر، أنا لا أحبّك، أنا عاشقة بجنون لكن ليس لك" . . .

– "ماذا؟ ماذا حدث؟ أجيبي!"

لكنّها لم تجب، وبقي صوته معلّقاً في الهاتف الذّي تركته دون أن تغلق سمّاعته المعلّقة بسلكها في الهواء، واستقلّت أقرب سيّارة أجرة لتعود إلى بيتها، كانت مشتاقة، ملهوفة على أن تعيش حبّها الذي انتظرته طوال عمرها، تذكّرت كلمة صديقة سويديّة عرفتها من سنوات، لقد قالت لها في معرض حديثٍ ما لم تعد تذكره الآن: "إنّ الحبّ هو العناية والاحترام، وليس لحظة جسد وعناق وكلمات تتبخّر في أرض الواقع، الحبّ هو العطاء، ثقي تماماً أنّ من يحبّك دون مقابل هو من يحبّك".

هزّت رأسها يمنة ويسرة دلالة على ندمها، وعضّت على شفتها السّفلى التّي لطالما قدّمتها شهوة سائغة للحبيب، وقدّمتها كدراً وغمّاً للزّوج، كانت الدّقائق طويلة لتصل إلى بيتها، شعرت بأنّها قرون، فكّرت بأن تنزل من السّيارة لتسبق بركضها كلّ الدّنيا، فتحت

الباب بعد أن أمرت السّائق بأن يتوقف، وأكملت الطّريق راكضةً باكيةً ملهوفةً، بعد نصف ساعة وصلت إلى الحيّ الذّي يقبع منزلها الفاخر فيه، كانت تلفظ أنفاسها المتقطّعة، وتحلم بلحظةٍ سترتمي فيها في حضن زوجها، وترجوه الإياب، وتبدأ معه ملحمةً من ملاحم الحبّ، ووصلت، ووجدت البيت كما وجدت الحبّ الذّي عادت تحمله مكللاً بالخيانة والغدر، ولكن زوجها لم يكن في انتظارها؛ لأنّه كان في طريقه إلى المشرحة بعد أن توقّف قلبه إثر نوبةٍ قلبيّةٍ حادّة.

لم تذهب إلى المستشفى، لم تردّ على أيّ مكالمات بعد المكالمة التّي عرفت منها أنّ زوجها غدا جثّةً هامدة عليها أن تستلمها في تابوت، أغلقت الباب، وتزيّنت كما لم تفعل من قبل، ودخلت لتهيّأ طعام العشاء، بالتّحديد هيّأت الطّبق المفضّل عند زوجها، الذّي كانت تسميه باسمه تقزّزاً، أوقدت ثلاث شمعات في الشّمعدان الفضّيّ القديم، ووسّطتها بين أطباق طعام العشاء، وركنت إلى أقرب أريكة من باب البيت، تنتظر أوبة زوجها من عمله لأوّل مرّة في حياتها . . . وطال انتظارها . . .وفكّرت من جديد بالهرب إلى آخر الدّنيا.

٧

دعوةٌ إلى الحبّ والحياة

غائبٌ من سنوات، ولكنّه ما زال حاضراً بكلّ تفاصيل وجوده وتجلّياته، كلّ صباح تشرب القهوة مع طيفه في شرفة منزلهما التّي تتّسع فقط لكرسيّين وطاولة صغيرة، الكرسيّان أحدهما لها والآخرله، هو يحبّ الجهة اليمنى؛ ليطلّ منها على حديقة الجيران المجلّلة بالزّهور اليافعة، وهي تحبّ المقعد اليسار؛ لأنّه يطلّ على صفحة وجهه الصّبوح، أمّا القهوة فهي سكّر زيادة كما اعتادا على شربها، في كلّ ليلة، في غرفة النّوم منامة النّوم خاصّته ما تزال معلّقةً على المشجب حيث اعتاد أن يعلّقها في كلّ ليلة، بضعاً من شعرات رأسه الذّي كان يربّيه ليسترسَل حتّى أعلى ظهره لا تزال عالقةً في مشطه بعد آخر مرّةٍ مشّط بها قبل أن يسقط شعره الذّي أحبّه،وهو يستسلم بانكسار إلى العلاج الكيميائيّ والنّوويّ الذّي تعرّض له طويلاً أملاً في صدّ طغيان السّرطان،ولكن دون فائدة،فما لجم العلاج السّرطان،ولا نما الشّعر

من جديد، ولا نجا الزّوج الحبيب ذو الشّعر الطّويل المسترسل من الموت.

ما زالت بعد سنوات طويلة وحيدة في بلّورةٍ زجاجيّة اسمها هو، لم تخرج منها أبداً، ولم تعد تريد أن تخرج منها، الكلّ تركوها لتعيش الحياة الذي اختارتها، وها هي تعيش في زمنٍ انتهى، ولا تبارحه أبداً، تعيش مع من أحبّت رغم أنف الموت، لا تخرج من بلّورتها أبداً، في الشّارع في العمل في البيت هو معها، وهي معه، بنفس الطّقوس، وعلى نفس الأوقات؛ لا تسمح أبداً لأحدٍ بأن ينزلق في بلّورتها، حتّى أولئك الذّين أتعبهم الوقوف على أعتاب عالمها، دون أن تعنّي نفسها بالنّظر إليهم، أفلوا دون رجعة، إلاّ ذلك الوسيم الأسمر الذّي يرأس القسم الذّي تعمل فيه من أشهر، فهو مصمّمٌ على الوقوف على أعتاب عالمها الذّي تعيش فيه، بل ومصمّمٌ على الولوج فيه، هو يريدها زوجة، ومصمّمٌ على ذلك، ولا يقبل بفكرة الانهزام أمام رجلٍ ميّت تعيش معه مسجونةً في الأوهام والزّمن الماضي.

لكنّها لن تبالي، يكفيها أن تشترّ لحظات سعادتها مع الحبيب الرّاحل حتّى تشعر بنفس السّعادة، وإن كانت تتمتلّكها لحظات من الأسى تشعرها بالفراغ والوحدة، وتدفعها إلى حالةٍ هستيريّةٍ من البكاء والأكل إلى أن غدت امرأةً مكسوّةً بالهموم والدُّهن، فكّرت كثيراً بالانتحار، بل وأقدمت عليه مرّة ، لكنّ قوّةً ما أنقذتها من الموت

أو لنقل حرمتها منه، إذ كان الطّريق الوحيدة للوصول إلى من تحبّ، في ما بعد عدلت عن فكرة الانتحار للأبد؛ لأنّها في ما بين سكرات الموت وغياهب الغيبوبة رأت زوجها لاوي الوجه، معاتب الصّوت، أمرها بصوته الأجشّ أن تعود إلى الحياة، وأن تهجر الموت الذّي تسعى إليه ؛ لأنّه رهيب، عندها استيقظت من غيبوبتها، وتماثلت للشّفاء، وعادت إلى الحياة، مع أنّها لم تعد أبداً.

اليوم مثل كلِّ يوم تناولت الغداء مع طيف الغائب، وشربت معه الشّاي قبل القيلولة، ثمّ تناولت الصّحيفة التّي اشترتها صباحاً، وبدأت بمطالعتها، لا سيّما عمود (لحظة جديدة)، الذّي يكتبه صحفيٌّ مشهور ومخضرم. لقد اعتادت أن تقرأ هذا العمود مع زوجها منذ أن كانا في فترة الخطبة، لقد أحبّا هذا العمود؛ لأنّه يملأ الدّنيا حبّاً ورغبةً بالحياة والاستمرار.

وبقيت على نذر قراءته يوميّاً، مع أنّ الحياة توقّفت عندها، وانحلّت في خيالات رجلٍ لم يستطع الموت أن يغيّب حبّها عن قلبه، فلا غرو أن ترفض الاستمرار في طقوس الحياة من دونه.

اعتادت أن تقرأ العامود اليوميّ دون تعليق، كأنّها عابدٌ يمرُّ للصّلاةِ في معبده ، ثمّ ينطلق لا يلوي على شيء ، لكنّ عامود اليوم ، استفزّها إلى درجة الجنون ، جرح صمتها ، وتحدّى أحزانها ، فثارتْ ، وغضبتْ ، ومزّقتْ الصّحيفة، وانخرطتْ في نوبة من البكاء، تلتها نوبتها المعتادة من الشّراهة ، ثمّ سمحت لنفسها بأن تخرج من بلّورتها قليلاً ، لتبحث

في دليل الهاتف عن رقم هاتف ذلك الصّحفيّ، وتطلب موعداً مستعجلاً، بل وتلحّ على ذلك، ولكنّ طلبها رُفض، وأُخبرت أنّ الصّحفيّ لا يقابل أحداً، لكنّها احتالت في السّؤال حتّى عرفت عنوان منزله، وقرّرت أن تداهم عالم ذلك الصّحفيّ شاء أم أبى، لتقول له إنّ مقالته السّخيفة المعنونة باسم (دعوة إلى الحبّ والحياة) سخيفة للغاية، ولا تعرف شيئاً عن الأحزان والانكسارات، فأنّى للإنسان أن يهجر الماضي،ويتجاوز الأحزان ،ويبدأ من جديد؟!!! وماذا عمّن قُطعت بهم السّبل، وخرجوا مجبرين من رحلة الحياة؟ أننساهم؟ ونتخيّل أننا لم نلقاهم ولم نعرفهم ولم نعشقهم؟!

كانت نفسها تردّد كلماتها وحيرتها، وهي تنتظر أن يُسمح لها بمقابلة الصّحفيّ بعد أن داهمت بيته، ورفضت أن تخرج دون مقابلته، عرضت عليها الخادمة أن تترك ملاحظةً مكتوبةً بما تريد، لكنّها رفضت، وصمّمت على اللّقاء، ومن الدّاخل سمعت صوت رجلٍ يطلب من الخادمة أن تسمح لها بالدّخول، بعد أن حمل صوتها المنفعل طلبها إليه.

توقّعت أن تدخل إلى غرفة المكتب، لكنّها تفاجأت عندما وجدت الخادمة تقودها إلى غرفة النّوم، وتستأذن بالخروج، وأصبحت قبالته تماماً، صحفيٌّ في آخر الأربعينات، أشيب الشّعر، هادئ النّظرات، تساءلت في نفسها: "أهو مريض؟". وتبخّرت الكلمات التّي حضّرتها من قبل من رأسها المملوء بالاضطراب ، بادرها بالقول

بصوتٍ هادئ: "سمعتُ أنّك محتجّةٌ على مقالتي الأخيرة!". شعرت بأنّ كلماته قد داهمتها، وتلعثمت وهي تقول: "الحقيقة ،أنا عندي بعض الاحتجاج".

ابتسم وقال: "احتجاجٌ على المقالة أم على الدّعوة للحبّ والحياة ؟"

قالت بمرارة: "احتجاجٌ على الموت، وعلى الدّعوة لنسيان من أحببنا، والاستمرار في الحياة،وكأنّ شيئاً لم يكن".

صمت الصّحفيّ المسجّى في فراشه، ثمّ ابتسم بمرارةٍ وقال لها: "أشعر بالحرّ، هل يمكنكِ أن تساعديني بإزاحة هذا الغطاء عن جسدي؟" لم تكن تتوقّع أن ينحرف الحديث إلى طلبِ خدمةٍ غريبةٍ كهذه، لكنّها وجدت نفسها ملزمةً بالاستجابة لطلبه، أزاحت الغطاء دون مبالاة، فبرز جسد الصّحفيّ، جذعٌ صغير منكمش بلا أطراف بل برأسٍ يتوسّطه فمٌ لا تفارقه ابتسامة سلامٍ وحبّ. جزعتْ ممّا رأتْ، وأفلتت منها صرخة لم تستطع أن تكتمها، جحظت عيناها، وقالت كمن يطارد كابوساً: "مستحيل . . . ما هذا؟"

اتّسعت ابتسامة الصّحفيّ، وقال وفي عينيه حنانٌ يكفي ليُنبت يدين، وليحتوي خوفها وحزنها وإشفاقها: "كنت في رحلة شهر العسل مع المرأة التّي اخترتها دون نساء الأرض، تعرّضت لحادثٍ رهيب، فقدتُ أطرافي فيه، أصبحتُ عالةً عليها وعلى حبّنا، لم أعد قادراً على إسعاد أيّ امرأة، بتُّ في حاجةٍ فقط إلى ممرّضة، فطلّقتها،

ووهبتها شطر ما أملك، تمنّيتُ لها السّعادة من كلّ قلبي، وارتحتُ عندما وجدتها مع غيري . . . ومع ذلك ما أزال أدعو إلى الحبّ والحياة، ألستُ جديراً بحمل لواء هذه الدّعوة؟ أنا لا أعرف أيّ الأحزان تأسرك، لكنّي متأكّد من أنّ هناك ما يستحقّ الحياة، وأنّ في القلوب الطّيّبة قدرة دائمة ومتجدّدة على الحبّ والعطاء، تمرّدي على الضّعف، وابدئي من جديد، عندها فقط ستعرفين أنّي كنت محقّاً في دعوتي للحبّ والحياة، والبداية الجديدة لا تعني أنّنا قد سلونا من أحببنا في الماضي، بل تعني أنّنا صنعنا من حبّهم حبّاً جديداً".

أرادت أن تشكره، أو أن تواسيه، أو حتّى أن تكبّ على جبينه، وأن تطبع قبلةً إكبارٍ واحترام، ولكنّها عجزت عن كلّ ذلك، وولّت هاربة.

في الطّريق إلى البيت شعرت بأنّها تستحقّ فرصةً جديدة، لم تسمح لطيف زوجها بأن يرافقها في رحلة العودة، انتحبت طويلاً، واشتاقت للخروج من السّجن الذّي أسمته الوفاء والذّكريات، اجتاح نفسها رضىً دافئ وهي تقف على أطلال الماضي باحترام، وتودّعها بعد سنوات من التوقّف على دارسها.

وصلت إلى البيت متأخّرةً ومتعبة، لم تمارس طقوس دخول المنزل التّي اعتادتها مع زوجها الرّاحل؛ لأنّها أيقنت أنّه قد رحل دون عودة، وقد آن أوان توديعه، وقدّرت أنّها في حاجةٍ إلى تغيير تسريحة شعرها، وتغيير لونه ، كذلك تغيير أثاث المنزل

الكسير الغارق في الحزن الذّي طالعت صورته منعكسةً في المرآة.فتحت دليل الهاتف، وأدارت قرص الهاتف، وانتظرت لحظات، ثمّ جاء صوت مديرها الوسيم الأسمر، قالت له: "أنا لن أحضر غداً إلى العمل".

قال باهتمام: "خير إن شاء اللّه".

قالت بابتسامةٍ ودلال: "أحتاج لبعض الوقت كي أُهيّئ نفسي لحفل الزّفاف".

قال بوجوم: "زفاف من؟"

قالت بمشاكسة وضحكةٍ رنّانة: "حفل زفافنا . . ."

٨

أنامل ذهبيّة

جمعهما شيء واحد ،وهو الغربة، ثمّ وُلد شعور حميم اسمه الألفة، كلاهما كان غريباً في أرضٍ غريبة، هو جاء من قلب صحراء الفقر؛ ليبحث عن عمل يكسبه الرّزق بكرامة، لم يملك شهادة أو خبرة مميّزة، ولكنّه كان يملك قلباً من حديد، وإرادةً صقلها الحرمان، هي جاءت من أقصى أرض الجليد والحرمان لتبحث عن عمل ينقذها من الفقر والفاقة، كانت مهاراتها محصورة، ومواهبها محدودة مثل جمالها الفاتح اللّون، المطعّم بنمشٍ زهريّ صغير.

التقيا في مؤسسّة صناعية كبيرة في إحدى الأقاليم النّائية، حيث لا أحباب ولا ألفة أو حتّى لا كلمات يفقهها، أو لغة يتدبّران بها معاً.

في البداية كان يقضي ساعة الغداء وحيداً في ركن بعيد من مطعم المصنع، يحادث نفسه بلغته التّي لا يعرف غيرها ليحادث بها

أيّ إنسانٍ هناك، ثمّ يهرع إلى الآلة التّي يعمل عليها طويلاً دون حاجة إلى كلامٍ بلغةٍ لا يعرفها، ثمّ ظهرت هي، كانت بمثل انكساره ووحدته، بينها وبين الآخرين لغة تجهلها هي الأخرى، وبينه وبينها لغتها التّي يجهلها.

رحّبت به بابتسامة عريضة ومتلهّفة عندما جلس إلى طاولتها، وبدأ الحديث، وطال، واستطال، وتشعّب، لم يكن حديث الكلمات التّي لا يفكَّان طلاسمها حاشا قليل منها، ولكنّهما تفاهما بأناملهما الذّهبيّة، خلقا لغة إشاراتٍ بأناملهما المتلهّفة على الألفة.
عرف الكثير عنها من حركة أناملها الذّهبيّة البيضاء كالشّمع، الممشوقة كسبائك الذّهب، وعرفت الكثير عنه من حركات أنامله التّمريّة اللّون، التّي لا تخفي حياة صعبة وشاقّة عرفها طويلاً.
أناملها الذّهبيّة وحركتها السّحريّة خلقت آلاف المواضيع، وفتحت آلاف الحكايا، الشّيء الوحيد الذّي عرفاه بالكلمات كان اسميهما، كلٌّ منهما قاله بلغته وبلكنته وبصوته.

التقيا كثيراً، زارا معاً الأماكن الرّتيبة في المقاطعة النّائية، تحدّثا عن حياتهما وآمالهما، ناقشا معاً الأفلام التّي حضراها، زارا المحميّات الطّبيعيّة الخلاّبة في المقاطعة، خيّما معاً، وسبحا معاً، حدّثته عن أرض الثّلج وطنها، فحدّثها عن أرض الشّمس وطنه، أرته صور أفراد عائلتها، فأراها صور أفراد عائلته، بنيا أملاً مشتركاً في هذه الأرض الجديدة، وتزوّجا.

وبنيا مستقبلهما، وأنجبا طفلين رائعين، وتحسّنت الأوضاع وتقدّم السّن، وبقيت أناملهما الذّهبيّة متخاصرة متعانقة وعاشقة، ووقع الخلاف، كانت الكلمات أقسى مما يحتملان، اتقنا لغةً مشتركة جديدة، ليست لغته الأم، وليست لغتها الأم، بل لغة المكان الذّي استوطنا فيه، جرح أنوثتها وصمودها الطّويل، وجرحت حبّه ومشقّته الطّويلة، وكاد ينهار المكان، هدّدت بالعودة إلى وطنها، وهدّد باختطاف الطّفلين ،والعودة إلى وطنه.

وكان القضاء بينهما، كان غاضباً منها، وهي كذلك، لكنّ شبح الفراق أشدّ ما كان يؤلمه، منعه محاميه من أن يكلّمها، ومنعها محاميها من أن تكلّمه، لكنّ نظراتهما لم تطعِ أيّ كلام، وتعانقت في لحظة صمت.

كانت شاحبةً كالثّلج، كان مشتعلاً غضباً كالشّمس، اقترب منها، وجلس إليها، عجز عن أن يصنع أيّ كلمة، فامتدّت أنامله في الفضاء، تحدّثت بأبلغ لغة، وتكلّمت أناملها، ومن جديد صنعت الأنامل بلغة الإشارة أجمل صلح، وخرجا من المحكمة بأنامل متعانقة، وأجساد متلاصقة، ولم يسمعا كلمة القضاء . . .

٩

عينا خَضِر

آهٍ من عينيّ خَضِر. . . ومن لا يعرف عينيّ خَضِر، فلينظر في عينيّ، ليرى على امتداد أحلامهما، وما بين الرّمشة والأخرى عيني خَضِر، تينك العينين اللّتين تتزرعان في أديم وجهه الحنطيّ، وتُشرقان مثل نخيل أخضر ببريقٍ شمسيّ في بيداء أشواقي، تلك الأشواق التّي وُلدت منذ أن كنّا طفلين، وعندما كبرنا، قلتُ له بحزم يغلّفه دلالي الرّيفيّ على استحياء الصّفصاف: "تزوّجني يا خَضِر . . وإلاّ سوف أقتل نفسي، وتكون خطيّتي في رقبتك إلى يوم الدّين".

لكزني برفقٍ على غير استحياء، وقال لي وآلاف البيّارات تشرق في عزم عينيه: "الله يلعن إلّي خلّفوكِ، لا أستطيع العيش بدونك، والله سوف أتزوّجك بعد موسم الحصاد".

. . . وصدّقتُ عينا خَضِر، وتزوّجنا، وبِتّ في كلّ ليلة أتعبّد في محراب عينيه؛ لأغفوَ على رموشهما. وزاد عشقي لعينيّ خضر

اللّتين تحملان من العزم والحبّ ما لا يعرفه الكثير من البشر. وكما أهدى حبّه لأرضه التّي كان يحدّثني كلّ ليلةٍ عن حبّه لها، وعن حلمه في أن يعيش فيها في سلام، في منأى عن كوابيس الصهيونيّة وجبروت الموت والدّمار، أهديته حركةً قدسيّةً تسكن في أحشائي، وتمور بعشقي، وتغرسني في دنيا من السّعادة، وأنا انتظر شجيرةً آدميّةً زرعها خضر في داخلي تُسمى طفلنا، وأحلم بأن تُشق عينا غرستنا على مثال عينيّ خَضِر.

في كلّ ليلة تحسّس خضر بطني؛ ليطمئنّ على غرسته، ثم يغفو وهو يحلم بطفلٍ يُولد في أرض محرّرة، يغفو على الحريّة، ويستيقظ على مداعبة النّفوس العاشقة لأرضه المعطاءة، وعلى صوت مآذن القدس، وأخيراً تفتّق جسدي العاشق عن غرسنا الجميل، كانتْ كلّ العيون حولي، إلاّ عينكَ يا خَضِر... آهٍ من القهر والموت، كلّ العيون تجتلي طفلكَ وتقبّله، إلاّ عينيك يا خضر، فهما تستحمّان في غياهب الموت، وتقدّمان محجريهما للدّود والعفونة ، كما قدّمتَ مكرهاً نورهما لعدو غاصبٍ.

في البدء سرقوا أرضك، سرقوا جنّتك القدسيّة كما كان يحلو لك أن تسمي أرضنا الواقعة في شمال القدس، ثمّ أطمعوا شبابك وكبرياءك لسجونهم المتعفّنة، وكبّلوا ثورتك وغضبك بأغلالهم الحديديّة، فصادروا صرخاتكَ ورفضكَ. ماذا بقي بعد ذلك؟ اغتالوا نور عينيك ،وقدّموه ليهوديٍّ يعاني من مشكلة في قرنيّتَيْه، أخذوا

قرنيّتَيْكَ، سرقوا عينيكَ يا خضر، وحرموك من متعة استقبال منظـــر الفجر في أفق المسجد الأقصى، ومن اجتلاء بريق قبّةِ الصّخرة فـــي سويداء الأفق، وأودعوك التّراب دون عينَيْن، بـــل دون أن تودّعـــك عيناي، وتجلّلكَ بزهو عشقي، وآس حسرتي.

يا خَضِر حسرتي عليكَ شوكةٌ في القلب، وآهٍ من أشواك القلب، ننزعها من القلب، وعلى الرّغم من ذلك تستمرّ في نخزه بلا رحمـــة، كانتْ ليلةً دافئة في حضنك، لا، بل ليلـــةً بـــاردة برحيلـــك، عنـــدما انتزعوكَ من حضني، قبضوا عليكَ ليلاً، اقتادوك بملابس النّوم، قلتَ لي ليلتها آخر كلماتكَ: "خذي بالك من الولد والزّيتون يا مره". وغبتَ في الزّحام .

ماذا كانت تهمتكَ؟ كانت حبّ القدس أليس كـــذلك؟ فـــي اليـــوم الثّاني جاء الجنود وجرّفوا الأرض، واغتصبوا زيتوناتها الواحدة تلو الأخرى، وألقوا بها بعيداً وهي تنزف، لم استطع أن أحميها يا خَضِر، ولم يسمحوا لي بزيارتك . . . بعد شهر قالوا إنّكَ مِتّ في السّجن، لم يسمحوا لنا بأن نراك، بل أسلموا جسدكَ ليلاً لأبيك وإخوتك؛ لتـــدفن في جوف اللّيل، وهمس الجميع بحسرةٍ مطحونةٍ: "خَضِر بلا عينين".

أقسمتُ على أن أعيد عينيكَ، ليلاً ونهاراً بحثتُ عن سرّ اختفاء عينيك، عندما كنتُ أنام كنتُ استظلّ بنورهما، دفعتُ كلّ مـــا أملـــك لمعرفة سرّ اختفائهما، دفعتُ القلادة الذّهبيّة التّي دفعتها مهـــراً لـــي،

وبلكنته العبريّة اللّعينة باح لي المجنّد الإسرائيليّ بكلّ شيء: "لقد قتلوكَ كي يحصلوا على قرنيّتيكَ من أجل يهوديٍّ مهدّدٍ بالعمى، يمتّ بصلة قرابةٍ إلى جنرال المعتقل"، ذلك الجنرال البغيض الذّي يسكن في آخر الحيِّ القديم، حيث استولى المستوطنون على بيت سيدي علي قبل سنوات، وضمّوه إلى ممتلكات اليهود.

عندما قلتُ لأهل البلد أنّ عينِيّ خَضِر لا ترضيان بأن تتيرا درب يهوديٍّ غاصب، ولا أن تسكنا في جسده إلى الأبد، بكى بعضهم من كلامي، وأمّا الأكثريّة فقالوا: "أرملة خَضِر راح عقلها، قد جُنّتْ منذ موت زوجها في المعتقل".

آخٍ يا وجع قلبي!!! لا أحد يفسّر كلمات عينيّ خضر كما أفعل، لا يمكن أن تشعرا بالسّعادة طالما هما تسكنان مجبرتين جمجمةَ عدوٍّ آثم، لا بدّ أنّهما تشعران بالأسى والقهر في سجنهما الآدميّ. سأحرّرهما، سأعيدهما إلى جسد خَضِر، إلى رحم أرضنا فلسطين، وليصفني النّاس بالجنون، فما هذا بعصر العقلاء.

طوال أسابيعٍ ناجتني عينا خضر اللّتان تسكنان جمجمة ذاك المستوطن اليهوديّ الذيّ احترفتُ مراقبته وتأمّل عينيه، عينيّ خضر، لا بدّ أنّهما عرفتاني، وتطلبان عوني، ابتسمتُ طويلاً لعينيّ خضر في وجه الصهيونيّ الذّي سرق حياة خَضِر ليسرقهما، زففتُ إليهما بشرى ولادة طفلنا "عودة"، بحتُ لهما بأشواقي. راقبته كلّ يوم، وسرتُ بالقرب منه في طريقه إلى المستوطنة التّي بنيت بالقرب من

أرضنا المغتصبة.

عينا خَضِر تملكان يدين تحضناني بدفء، تكفّنان أحزاني، تدعواني إلى احتراق الفنيق، تدعواني إلى ضمّهما، وإلى إطعامهما لدود الأرض التّي يعشقها، ترفضان جمجمة الإسرائيليَّ. وأخيراً اقترب أوان الاحتضان، ما عادت عينا خَضِر تطيقان الغربة، وآن اللّقاء.

اقتربتُ من المستوطن، لم أرقب قسماته وانفعلاته، بل راقبتُ باهتمامٍ عينيّ خَضِر اللّتين تسكنان بذلٍّ في مقدمة وجهه، عانقت نظراتي وحدتهما وغربتهما، مددتُ يديّ إليهما بشوق، ثوانٍ بسرعة الجنون مرّت، الصّراخ يتعالى، المستوطن يتمرّغ كالثّور في دمه، صرخاته تهزّ المستوطنة، عدد من الرّصاصات الباردة تعاجل جسدي لتسكن فيه باشتهاءٍ آثم، لا بدّ أنّها رصاصات المستوطنين، ليكن، أنا لا أبالي برصاصِ الجبناء.

الدّم يغادر جسدي سريعاً كأنّه يشتهي ذلك منذ زمن، الجلبة تملأ المكان، مآذن الأقصى آخر ما تلمح عيناي، جسدي يترنّح، ويكاد يلقي بنفسه في كفّ شبح الموت الذّي يمدّ يديه لالتقاطي بفضولٍ خاص، أتفقّد يديّ بفضولٍ وإعياءٍ شديدَيْن، أظافري الطّويلة ،التّي حرصتُ على حددتها وطولها من أجل هذا اليوم تسكن بينها وبين اللّحم شراذم من لحم وأنسجة ودماء عين المستوطن، وفي الكفّين يا لهفي!! ترتاح عينا خَضِر، اللّتَيْن انتزعتهما بأظافري من

جمجمة اليهوديّ، تتمدّدان بلزوجة الدّم، وحـــرارة الـــرّوح، ينزلـــق ماؤهما بين أصابعي، التّي شرع الموت يخلع عزمها، أشـــدّ عليهمـــا بقوة . . . ما أجمل الغنيمة!! عينا خضر لن تسكنا جسد الـــصهيونيّ بعد الآن، الموت يأكل جسدي بإصرار، رصاصات أخرى تـــستقرّ فيه، يسفّ فمي شيئاً من تراب الأرض، وتذيب الدّماء آخر أنفاســـي، أسلم روحي طائعةً راضية، وفي كفيّ تستلقي عينا خَـــضِر، اللّتـــان تنتظران طائر الفنيق ،وتقبّلان الأرض . . .

١٠

كرنفال الأحزان

تستهويني الكرنفالات ، تستفزّني نزوة الهدايا، وهمس الكلمات، ولهاث القبل، تشعرني بقرعٍ جنونيٍّ يمزّق أشلاء أفراحي، فتتراقص أحزاني بولعٍ وتيهٍ بين جموع الرّاقصين، تستقبل ببرودٍ قطرات الصّراخ ودفعات الأجساد المسكون بحمى الرّقص والفرح ،وبين آلاف الأجساد الربيعيّة والأحلام السرمديّة تتراقص أحزاني عاريةً تماماً ، ففي الكرنفال لا تُلبس إلاّ الأفراح ، أمّا الأحزان فتلبس أجسادنا.

حتّى أجسادنا تعرف معنى نشوة الكرنفال!! في الصّباح نصحبها برضىً إلى السّاحات تشارك وجداننا في سعادته ،فتّتشح بالزّاهي من الألوان معلنة أفراح الزّمن. ولكن أين جسدي هذا الصّباح لأصحبه إلى الكرنفال!؟

بدا كلُّ شيءٍ غريباً عليّ؛ فأنا لا أجد جسدي، مرعبٌ أن

تستيقظ فلا تجد جسدك ، بحثتُ عنه في كلّ أنحاء الغرفة فلم أجده، ولكنّي وجدتُ منامتي على السّرير، الذّي تسكنه الفوضى، في الحمام سمعتُ صوتي يتأوّه تحت شآبيب الماء السّاخنة، لفحتني رائحة صابون النّعناع الذّي استحمّ به كلّ يوم، بل أقسم على أنّني سمعت صوت مياه الصّنبور يهشّم جلبة مضمضتي بالماء والصّابون.

إذن جسدي في الحمّام يغتسل!! وأنا كما الطّفل المعاقب أخشى أن أقطع بضع خطواتٍ لأتأكّد من وجوده، ولكن ماذا لو كان الغريب الذّي في الحمام ليس جسدي؟ إذا لم يكن جسدي فمن تراه يكون؟! لا. .لا هو جسدي، فمن سيستحمّ في حمّامي غير جسدي؟! سأختلس بضع نظراتٍ لأتأكّد من أنّ جسدي في الدّاخل . . ولكن ماذا لو كان عارياً؟ بالتّأكيد سأسبّب له الإحراج، هل سيُصدّق أنّه جسدي؟! يجب أن يصدّق أنّه جسدي؛ أنا لا أكذب، وهو يعلم ذلك. ولكن إن كان الغريب، الذّي في الدّاخل هو جسدي فمن أكون؟!

للحظاتٍ شعرتُ بعينيّ تزوغان بوجلٍ بحثاً عن إجابة تخشيان أن تجداها، شعرتُ بأنفاسي تتقطّع، وبطيفٍ من الجفاف يلفح حلقي، صمتُ. . ثمّ انهمكتُ في فيضانٍ من الضّحكات. مضحكٌ أن تخشى أن تلقيَ نظرةً على جسدٍ غريبٍ يُسمّى جسدك، وساخرٌ أن تستيقظ فلا تجده بعد ملازمةٍ طويلة.

أسندتُ ظهري إلى حائط الغرفة بتعبٍ من حطّمه الانتظار،

وبانزلاقٍ يشبه خلجات غريق يستسلم للمـــوت تكوّمـــتُ علـــى الأرض، خشيتُ أن أُحدِثَ أيّ صوتٍ، فيسمعني جسدي!! بيني وبينه بضع خطواتٍ تساوي آلاف المسافات، تـــساوي الـــسنتمترات التّـــي فصلتني عنكَ في أوّل لقاءٍ،و خلتها مثل سنينٍ ضوئيةٍ. كنـــتَ تـــتكلّم بهدوءٍ عجيبٍ تحترق بوهجه آلاف الكلمات، وتُولد في رحمـــه آلاف الهمسات والأمنيات، نظراتُكَ كانت تركض سريعاً، تتفحّص الوجوه، تحثّها برفقٍ على السّماع، ثمّ تركض بنزقٍ؛ لتسبح في بحيـــرةٍ مـــن المجهول. أنهكتني نظراتكَ وأنا أركض خلفها، أحـــاول أن أدعوهـــا لتصافح نظرات عينيّ لتراقصها ولو لدقائق، لتحـــضنني وتحرقنـــي بقدسيّةٍ كما يحترق البخور، لطالما خشيتُ من صوت لهاث نظراتي، التّي تطير لتقبّل الأرض عند قدميك، أيكون الكلّ قد سمعه إلاّ أنت؟! عيونك كنز أعشق سرقته، ولا أخشى لعنته، بل أطوّقه بذاتي، كم مرّةً شعرتَ بأنوثتي تطوّقك؟ كم مرّة رأيتني عاريةً اســـتحمُّ فـــي طهـــر عشقك؟؟ لا تجبني، دعني أتمنّى الإجابات.

جسدي لا زال في الدّاخل يستحّم!! صوت الماء يضجّ المكـــان به، يغسل الجسد، ويقلعني ليرميني في عالم الأحزان . . .

أتستحمّ الأجساد صبيحة الكرنفال لأجله؟! أم لتقابله من دون عرق الألم، ورائحة العشق، ورذاذ الأمنيات والشّهوات؟!

لماذا أتذكّرك الآن بالذّات ؟! أتصوّرك تسير في الرّدهات بكبرياء ، تصطنع سيراً يجسّد الإغراء والكبرياء ، سيراً لم يُخلق ألاّ من أجلك،

تشرئبّ بنظرك إلى الأمام . . قلّما تنظر حولك! نظراتكَ لا تخصّ أحداً بالذّات، ولكنّها تغمر الكلّ بالاهتمام، خطواتكَ ترسم زهواً خاصاً لا يليق إلاّ برجلٍ يملك مثل جسدك الغضّ، وقامتك الممتدّة، ورجولتك اللاّفحة. تمرّ كالطّيف تنير المكان في عينيّ . . ترحل إلى البعيد، وأبعث خلفك أطيافاً من الأمنيات.

جسدي لا زال في الدّاخل يحدث جلبةً مسموعة، كأنّه يستفزّني ، اسمعه يراقص الماء. المكان يعبق برائحة الصّابون، وجسدي يدندن بأغنيةٍ تحفظها روحي ، أغنية غنّيتها لي قبل سنوات طويلة. أتذكّر ذلك المقطع الذّي لم تحفظه أبداً، وكنتُ أذكّرك به، أتراكَ حفظته الآن؟ أشعر بأنّي أذوب كلما استحضرَتْ روحي تلك الكلمات، أخالك تلمس جسدي، تلفحني أنفاسك الغارقة برائحة النّعناع التّي تضمّخ رجولتك الصّاخبة.

لقد مضت ساعات وجسدي ما زال يغتسل!! أتراه يحتاج إلى بحارٍ كاملةٍ لتغسله من درن أحزانه وآلامه ، تلك الآلام التّي أصبح عمرها الآن ثمانية أعوام ، أتراه يحتاج إلى قرونٍ في قاع المحيط لكي ينسى عالماً من الحبّ والأمنيات واللاّ معقول الذّي زرعتني به.

المطر يشتدّ في الخارج ، يغسل الطّرقات، أترى المطر يعرف الأمنيات مثل البشر؟ أتراه يرى في تلك الطّرقات فتاةً صغيرةً تسير كلّ ليلةٍ وحيدةً تحت المطر تنتظر رجلاً وعدها بأنّه سيلقاها تحت

المطر؟ تشعر بالبرد والخوف، ولكنّ أمل لقائها بمن تحبّ يبقيها سنواتٍ تحت المطر ، وتمرّ السّنون، ولا يأتي الحبيب، وينزل المطر ، وفي آخر الطّرقات فتاةٌ ما زالت تنتظر . . .

لم أعد أسمع صوت الجسد المشاغب في الدّاخل! دفق الماء مستمرّ والجسد صامت! لابدّ أنّه غرق في الماء، أو لعلّه غرق في أحزانه، ولكن كيف يمكن أن يغرق من دون أن يذكر اسمك؟! لقد غرق هذا الجسد منذ سنوات عندها استنجد باسمك! لم يذكر الله، لم يتمنّ النّجاة، لم ينتظر المساعدة، لم يخشَ أرتال الماء تغرقه، وتذيبه بها، تذكّر فقط وجهك الطّيّب، وأنفاسك الدّافئة، ونادى باسمك، ليس لأنّه يطلب النّجاة؛ بل لأنّه يريد أن يكون اسمك آخر ما يلفظ، وآخر ما يُودّع. لماذا تمنّى وقتها أن يموت؟! أتراه كان يتمنّى أن يموت وهو في قمّة العشق، أم تراه أحبّ الموت وهو يحمل اسمك، ويرسم قسماتك السّماويّة؟!! لعلّه أراد أن يلقاك في دنيا أوسع من هذه الدّنيا حيث تجلس في علياء عرشك العاجيّ، لتتربّع على عرش من العشق والمستحيل، وتتوّجه إلى جانب شمسك المنيرة قمراً صغيراً، يستقي النّور من وجهك، ويتراقص في كلّ ليلة حتّى الثّمالة، ويسقط عاشقاً في حضنك تسمعه آلاف الحكايات عن إلهٍ إغريقيّ تعشقه طفلةٌ من الأرض، ويعشق عشقها له.

الهدوء بات يغمر المكان، والجسد لا يزال يزرع نفسه في المجهول، أتراه مات؟ أيموت قبل أن يحضر الكرنفال؟؟! من سنواتٍ هو يتهيّأ لهذا الكرنفال، في كلّ عيد ينزل إلى الأسواق ، يبحث عن وجهكَ

بين الوجوه، يتأمّلكَ في كلّ زهرة، يتخيّل وجهكَ في كلّ الوجوه، ويترك الباب لكَ في كلّ مساء لتدخل ولتحضنه ،ولتزرع في داخله شيئاً من البهجة.

ذلك الجسد الصّامت في الدّاخل كان بين يديكَ طفلاً وديعاً، عندما ضممته إلى صدرك أحسّ أنّه في مراقص الجنّة، حفظ من دون كلّ الأصوات وجيب قلبك، ومن دون كلّ الرّوائح استعذب رائحة جسدك . . . هذا الجسد تمنّاك أبداً . . . عندما رحلتَ عاش في غربةٍ عن نفسه، أتراه سخط على نفسه ،فرحل عنها بعد رحيلك!

الوقت يسير ببطءٍ لئيم يقصد أن يسحق تحمّلي الهشّ ، بدأتُ أشعر بالتّعب الشّديد، وأحنّ إلى ذلك الجسد الصّامت في الدّاخل، أتراه سيعرفني؟! سأعجب إن عرفني!! فأنا لا أعرف نفسي ، بين ذاتي وجسدي حربٌ ضروس تحرق ذاتها لتقدّمها قرباناً في مذبح النّسيان، أأنا نسيانٌ أم خلقني النّسيان؟ أأنا أحزانٌ أم جسد؟ أم كلاهما معاً؟ لعلّي لم أكن أيّاً منهما ، بعد ساعاتٍ سينتهي الكرنفال ، لم أعد أذكر ما اسم هذا الكرنفال ، من يهتم؟؟ ليعرف اسمه من يحضره مع حبيبه، أمّا أنا فقسمتي دائماً النّسيان، وحفنة من الآلام ،الكرنفال الذّي حفظتُ اسمه هو يوم معرفتي بك، أمّا غيره من الأيّام فسواءٌ منذ رحيلك المشؤوم.

في تلك الخزانة مئات الرّسائل والبطاقات التّي كتبتها ، ولم

أرسلها، أتعرف لماذا لم أرسلها؟! لأنّني رحلت عن نفسي بعدما كتبتها ، لا زلت أذكر ما كتبتُ لك ، كتبتُ لك بأشواق امرأة عاشقة:

"أريد أن أركب معك
ولو لمرّة واحدة
قطاراً ينسى أرصفته وقضبانه وأسماء مسافريه
أريد أن تلبس
ولو لمرّة واحدة
معطف المطر
وتقابلني في محطّة الجنون"

وانتظرتكَ لسنواتٍ طويلةٍ ، انتظــرتُ أن نــسير و نــسير لساعاتٍ وساعات تحت المطر، أن نسبح في ماء الورد ، أن نجلس في مكان صغير على قارعة الطّريق ، أن نتوقف عند كلّ محلٍ لتهديني وردة صغيرة، أن نحتفل بكلّ لحظة ، أن ندخل عشرات السّينمات ، ونخــرج قبل انتهاء عروضها ؛ لأنّ كلاً منّا قد اشتاق لرؤيــة عينــيّ الآخ ، أن تفرح بجنوني بل تجنّ بجنوني ، أن نتسلّل ليلاً إلــى الحــدائق العامّــة، ونتأرجح كالأطفال ، وعندما يطردنا الحرّاس نخرج ضاحكين بعــد أن نعطيهم من أزهارنا ، أن نأكل ونلــبس ونمــشي بــذوق بعــضنا البعض، أن ندخل جميع محلاّت الهدايا ، نراقب المحبّين وهم يتــسوّقون سويّاً ،و نرسل لهم باقات ورود مجهولة المرسِل، أن نحبّ

أعمارنا وحياتنا بل وأعياد ميلادنا؛ لأنّها هبتنا لمن تحبّ، أن تخبر الجميع بأنّنا عاشقان حتّى الثّمالة، أن نرفض حمل هويّاتنا ؛لأنّ وجودنا معاً هو هويتنا، أن نأخذ إجازة من كوكب الأرض، ونرحل إلى عنوان مجهولٍ لا يعرفه بشرٌ، ونقيم في غرفةٍ ليس بها إلا أرجوحةً مطّلة على آلاف الغابات والينابيع . . أن تضمّني في كلّ ليلة ،وتحكي لي حكاية، وعندما يأتي الموت نموت سويّاً في متحاضنين .

ما ذاك الهدوء الذّي يخيّم على المكان؟! بدأتُ أشكّ في أنّ الجسد الذّي في الدّاخل هو صدىً لجسدٍ عاشق كان هنا ورحل منذ أعوام، أظنّ أنّ جسدي متكوّم هنا، يغلّف أحزاني أمام حائط غرفتي الإسمنتيّ البارد، أمّا روحي فقد رحلتُ منذ سنوات ، منذ رحيلك لم تعد تزورني إلاّ لترقص معي رقصةَ الألم في كرنفال الأحزان، وتعود إلى الرّحيل ، ففي الكرنفال لا تُلبس إلاّ الأفراح، أمّا الأحزان فتلبس أجسادنا . . .

وتسكنها إلى الأبد . .

١١

الملاك الأزرق

في السّماء النّاعمة الملمس، القطنيّة الانتشار، اللاّزوردية اللّمعان كلّ شيء كان أزرق، حتّى الأزرق كان أزرق، ولحظة انشطار السّماء كانت زرقاء ، ومن هناك خرج اثنان، رجل وامرأة يحملان الأشواق، يغذّان الخطى نحو الأرض، ليزرعا فيها أشواقاً للأزرق الذّي طردا منه، الرّجل اسمه آدم، والمرأة اسمها حوّاء، من بعدهما التأم الأزرق، أزرق السّماء، وأُغلقت السّماوات دونهما، ولكنّهما سرقا ملاكاً جميلاً من السّماء، أزرق العينَيْن، وأسمياه إله البحر؛ لأنّ صفاء عينيه هيّج غيرة البحار، وأقلق رتابة قيعانها، وجعل كائناتها تشرئبّ لرؤيته. آدم كان فخوراً بملاكه الصّغير، حوّاء الفاتنة أبرمت معي صفقة حول هذا المستحيل الذّي تحمله بين يديها، وانزلقا كلاهما هاربين بغنيمتَيْهما، وغنائم السّماء لا تردّ لا سيّما الزّرقاء منها .

أمّا أنا فأنزلق بكآبة عبر ملايين السّنين الورديّة في مقعدي البليد في صالة المغادرين في المطار، انتظر أن تدلفَ إلى القاعة تمتشق دماثة روحك، وتصافحني مصافحة البحر للأمواج، تتأخّر، انزلق أكثر بحركةٍ انهزاميّةٍ مستكينةٍ في المقعد حتّى أكاد أتكوّم على ذاتي، يقترب ذقني بانكسارٍ من تلك القلادة الفضيّة ذات البلّورة الزّرقاء التّي طوّقتني بها، كما تطوّق أسراب السّنونو لجّةً من لجج بحرك ، أتابع من الواجهة الزّجاجيّة التّي تقابل مقعدي أسراب الحمام في السّماء، الأزرق!! ما أجملك من لون يطاردني حتّى في السّماء!! سريعاً أبحث عن قلم لأكتب به شيئاً من الكلمات لك، لا أجد القلم، ولكن تطالعني السّماء بذكرى كلماتك، وأنت تقول: "أنتِ امرأة في عينَيّ المحيط . . . أينما تكوني اعلمي أنّني قريبٌ منكِ" .

سريعاً أنزلق في الماضي، وأتسربل الأحلام، أقفز في حلم طالما راودني، أرى نفسي في بحيرةٍ صافيةِ التّردّدات، بحركةٍ انسيابيّة يتمطّى جسدي في مائها، يحاكيه بلغةٍ لا يفهمها إلا الجسد، أيمّم نحو أقصى طرف البركة، الشّمس تُخمد فضول عينيّ ونهمهما في رؤيتك، وتحدّ من مداهما، أقترب نشوى من جسد رجل ينتظرني هناك، ينحني الجسد لي، لا أكاد ألمح إلاّ زرقة عينيه ولا شيء آخر، الملامح كلّها مختفية في دثار الشّمس، يقترب منّي، أمدّ جسدي خارج البركة نحوه، تكاد شفتَايَ تلامسا بشوق شفتيه، يشتدّ توهّج الشّمس في عينيّ، تقترب الشّفاه، وينقطع خيط الحلم السرمديّ،

و يختفي الحلم . . . ليتكرّر في ليلة أخرى وليالٍ أخر .

في زمن ما، يسمّونه بلغةِ أهل الأرض قبل أشهرٍ ثلاثة، ألقــاكَ في أحد الأماكن برفقة أصدقاء، ابتسم لك، أعرف في عينَيْــك شــيئاً يسمّونه الانتظار، واللّقاء المفترض، أعرف أنّك ملاكٌ رقيق هــارب من السّماء، أسأل الأصدقاء بلهجةٍ كاذبة مدّعية، وهم لا يعرفون أنّني قد التقيتك قبل مليون سنة بزمن البحر الأزرق :"من هذا القمر؟ تبتسم وتقول لي: "اسمي. . . ، ومعناه إله البحر باللّغة . . ."

أقول لكَ بنبرةٍ من تكلّم حبيبها الصّغير الذّي لطالما لهت معــه في طفولتها، وجمعت معه الأصداف، وبنت له بيوت الرّمــل علــى الشّاطئ: "وأنا من أكون؟".

تبتسم لــي ، وتغمرنــي بــآلاف الحكايــا، وتغرقنــي فــي أريــج الذكريات،وتقول:" أنت أينما تكوني فأنتِ في عينيّ المحيط".

تمرّ الشهور الثلاثة بسرعة، وتُختزل الآف الذّكريات في ذاكرة المكان الصّغيرة، ونزرع ملايين الحكايا حيث لن يجــدها أحــد، إلاّ عندما تكبر، ويتفيّأ بها شبابنا، تقول لي: "أزرق". فانظر فــي زرقــة عينيك حيث البحر. مرّةً أخرى يطاردني حلم القبلة في المنام. هنا في قاعة الانتظار تطارد عيناي الوجوه بحثاً عنك.

على الواجهة الزّجاجيّة أمامي تتدلّى بعــض قطــرات النــدى، سريعاً ما تركض نحو الأسفل، أتساءل: "ما طعمها؟" بحركةٍ خاطفــة نشوى امتصّ بعضها، مسكينة لا طعم لها، تذكّرني بأسطورةٍ قديمــة

تقول: "إنّ إله الشّمس عشق النّدى، وأراد أن يصارحها بحبّه، ولكنّــه كلّما اقترب منها بأشواقه الحارّة، وأنفاسه الملتهبة، تبخّرت في أثيــر أشواقه وانتظاره.

مرّةً أخرى انتظرك ، أردّد في ذاتــي كلمــة قلتهــا لــك فــي الماضي: "إن اختفيت من حياتي سأموت، صدّقني هذا مــا ســيجري لي".

تطلّ الكلمات بأعناقها الملكية وياقاتها الزّرقاء، تخور قدماي، ومــرّةً أخرى أجد نفسي أنزلق كسمكة ذهبيّة صغيرة في بحيرة أحلامــي، لا أجدك في انتظاري، أسائل بتلات اللّوتس عنك، تتثــاءب بكــسلٍ ولا مبالاة، ثم تنكر رؤيتك، ما زالت أشعة الشّمس حارقة.

فجأةً، ومن دون توقّع ينسلخ صوتي عني، يردّد فــي جنبــات البحيرة "إن اختفيت من حياتي سأموت، صدّقني، هذا ما سيجري لي، ألم أقل لك إنّني أحبّك، لا تسلمني للموت". يجلجل الصّوت في أركان البحيرة، تضجّ كائناتها بوعيد الموت، لجّة غاضــبة تتجــه نحــوي، تغمرني بعميق مائها، ابتعد هاربة، يرتفع وجيب قلبي، يتحوّل المكان إلى قلبٍ وجيبه من أمشاج ذكرياتنا ووعودنا، يرعبني الــصّوت،أرى الموت يحاصر روحي، أصارع قوّةً غريبة تشدّني نحو قاع البحيرة، حيث أزرق الموت والاختناق، أقاوم، أرفض الاستسلام، أتلوّى كمــا سمكة، أزعجُ سكون البحيرة، واستيقظ من حلم يقظتي فزعى.

أعدّل جلستي، أتفقّد أنفاسي، لا أزال حيّة، تبّاً للأحلام،

أحسّن من وضع هندامي، من بعيد أراك تقترب بمشيتك، التّي تجمع بطرافة عذبة بين حماس الرّجولة ونشاطها ونزق الطّفولة وبين تهلّل الصّحة والرّشاقة، حقائبك معك، تطالع القلادة التّي تحاصر عنقي، تلمسها كأنّك تريد أن تتأكّد من وقعها على نفسي، وتقول بابتسامتك الشّقية، ولكنتك المتعثّرة في دثار العربيّة: "إذاً، ستكونين في وداعي، ظننتُ أنّ رحيل البحر سيدفع الأسماك الجميلة إلى الانتحار."

أتأمّل عينيك، ما أجمل الأزرق وما أقساه!! الأزرق بحر،الأزرق سماء،الأزرق ملاك هو أنت،الأزرق دثار دافئ يحتضن طفلاً الآن أدرك الوجود، أو لعلّ الوجود أدركه، تضمّه الأيدي ، وتسمّيه: "حبيبي الصّغير."

أكاد أقبّلك، أبحث عن الشّمس التّي تطاردني في دنيا بحيرتي الشّمسية، أزرقك هو أزرق أحلامي، أكاد أخبرك بحكاية حلمي المائيّ، لكنّ شيئاً يمنعني، لا أريد أن ترحل الأحلام هي الأخرى معك، ابقِ لي شيئاً من دنياي المسافرة معك، حسبك أنّ جزءاً من قلبي قد حزمته في حقائبك دون أن تدري، أحلامي حبستها في مكان ذكرياتنا، ستسافر، وتبتعد، وتتركني إلى الأبد طفلة لاهية تبني البيوت الرّملية، وتنتظرك على شاطئ الطّفولة، وهامش الذّكريات المصادرة، تتنشّق دموعها وبكاءها، ترفض أن تتوقّف عن البكاء حتّى تأتي سيراً على سابق عادتك، وتتسلّل يداك حيث يداها، تمسح دموعها ،وتقبّل

يديها، وتقول لها :"هيّا نجمع الأصداف."

أحضن يدك كما اعتدنا أن نفعل في اللّيالي المـــاطرة، أداعـــب باطنها الدّافىء، تقول لي بعنادٍ طفوليٍّ هو أجمل ما في أزرقك: " أنـــا مصممّ على أنّ خطوط باطن يدك تشبه خطوط باطن يديّ." أداعب خطوطك، وأومئ بالنّفي، أخطّ في باطن كفّك بعض الحروف بتـــؤدة مقتولة، تقول لي: "ماذا كتبتِ؟"

ابتسم بصعوبة، وأقول: "أنا لن انتحر حتّى ولو رحل البحر، ذكـــراه تكفيني، أنا سأكون دائماً في وداع النّوارس".

تمدّ كفكَ لتمسح دموعاً غلبتني، وكانت فـــي وداع النّـــوارس، تسألني بخبثكَ الطّفوليّ الذّي أتعشّقه: "أتبكين لفراقي؟"

أجيبك: "بل أبكي لأنّني سوف لن أجد صديق طفـــولتي الأســـطوريّة ليمسح دموع طفولتي، دائماً اعتدت على أن تمسح دموعي، الآن لن تفعل"

نحو السّماء الزّرقاء يحلّق ملاكي الأزرق، أراقب الطّائرة التّي حُزم فيها شيء من قلبي، ابتسم، لا أعاود البكاء؛ لأنّك غير موجـــود لتمسح الدّموع، سأبقى دائماً تلك الطّفلة التّي خاصمتها على شـــاطئ البحر، ورحلت دون أن تعرف كم أحبّتك.

سريعاً أقفز في بحيرتي الخياليّة، أتمطّى فيها من جديـــد، وأراك فـــي البعيد، اقترب منك، أقبّلك، ووهج الشّمس يخفي ملامحك إلاّ عينيـــك الزّرقاوين...

١٢

الغرفة الخلفية

أسندت ظهرها إلى الخلف، فغارتْ في أريكتها ، أخــذت شــهيقاً طويلاً ، ثم زفرت باضطراب وقلق ، مسحت العرّق الذي يتنزّى من جبينها ، الذي يعتلي عينين تزوغان بوجل ، حدّقت في تلك الأشجار العالية التي تطلّ بفضول مخيف من نافــذة غرفتهــا ، كلمــا نامــت شعرت بتعب مضاعف ، في كلّ صباح تحتاج إلى نصف ساعة على الأقل بعد الاستيقاظ لتستجمع شتات نفسها التي تتآكل يوماً يــوم فــي دنيا كوابيسها التي باتت أسيرة في رعبها، ما أبــشع كوابيــسها!! ، حيث التوحش والقسوة والموت ،ولكن قسمات وجهها هي أقــبح مــا ترى في ذلك العالم ، وجهها مخيف يفيض وحشيةً وغضباً ، تقتــات بفمها ذي الأنياب الذئبية أجساد وذنوب وخطايا الآخــرين ، تهــصر بيديها القويتين جسد فرائسها الآدمية،وبتثاقلٍ وئيــد تنــسحب مخلفــة زئيراً جهنمياً ، وأجساداً مسلوبة التماسك والحياة.

هذه الكوابيس المزعجة تعذّبها ليلاً ، وتطاردها نهاراً ، بدأت هذه الكوابيس منذ أن رحلت أمّها إلى العالم الآخر ، بالتحديد منذ أن بدأت في العمل في ذلك المجمّع التجاري، عند ذلك التاجر الشاب الوسيم الذي يفيض شباباً ونهماً،الذي تشعر بأنّه سيلتهمها بعينيه الخلاسيتين. كم تتمنى لو أنّ أمّها لم ترحل، وبقيت في دنياها، كانت تشعر بأنّ وجودها في الدنيا يهبها سلاماً ودفئاً ، فبمجرّد أن تدخل البيت، وتشتم رائحة أمّها ، تنسى العالم الذي في الخارج ، أمّا الآن فذلك العالم الذي كانت تملك قدرة جبارة قادرة على إغلاق الأبواب دونه ، بات يتجرّأ على اقتحام عزلتها، ليلبسها بسواده وخوفه وبطشه ، أحياناً تشعر بأنّ ذلك المجرم المتوحّش، الذي يجوب البلدة ،يقتل بلا رحمة ،سوف يتسلل إلى بيتها ، ويجعلها طعاماً لنوارس الميناء ، تتخيّل جسدها النحيل متعفناً مهصوراً تقتاته دواب الارض ، وينخر الموت عظامه الصغيرة ، وفي قاع البحر تغوص جمجمتها ، وتسكن السمك محجري عينيها.

أجالت عينيها بترقب محموم في الغرفة ، في هدوئها سمعت أصواتاً مريبة ، تراءى لها أنّ السرير اقترب قليلاً منها ، وأنّ أغطيته القطنية البيضاء ترشح دماً ، وهي تكفن جسدها المسجّى بقهر،شعرت بالرعب ،وكادت تصرخ ،و تولّي هاربه، سريعاً ما غاب المنظر، وعادت الأغطية بيضاء تستلقي بفوضى على السرير، وازداد خفقان قلبها.

قرّرت أن تتناول فطورها ، ثم أن تذهب إلى عملها، كم شعرت بأنّها متعبة ومنهكة!! على رجليها كدمات كثيرة وعلى صدرها كذلك، خمّنت أنّ السير الطويل البارحة إلى بيت العرافة الغجرية قد استهلك قواها، الحق أنّه قد استهلك الكثير من صبرها ونقودها أيضاً، كم كانت سخيفة عندما فكّرت في اللجوء إلى مثل تلك الدجّالة التي قالت لها:" إنّ روحاً شريرةً قد سكنت جسدها، وإنّ هذه الروح تزعجها، وتسبب لها القلق والخوف، ولذا عليها أن تقدّم النذور والقرابين لهذه الروح كي تغادر بسلام".

لكنّ أنّى لها أن تصدّق ذلك الهراء؟! وإن كانت تشعر بحاجة إلى عون وحب وملجأ من شيء تخشى منه،لعلّها تخشى الوحدة، ولعلّه الخوف من المجرم الذي يسكن ليل البلدة، بعد أن غادرت خيمتها المنبوذة في أقصى ساحل البحر، كادت تعود أدراجها ،وترجو مساعدتها،لكنّها استقبحت الفكرة، ومضت في طريقها.

تقول في نفسها صارخة وهي تحدّق في عينها في المرآة المواجهة لها:" لعلّ الروح الشريرة أمرتها بأن تغادر خيمة العرّافة؛ لأنّها تستطيب البقاء في جسدها".

الليلة الماضية رأت كوابيس مزعجة ومخيفة، معظمها غير قابل للتفسير، ولكنّها تستطيع أن تتذكّر بوضوح وجه مديرها الوسيم، لكنّه لم يكن وجهاً وسيماً كما ألفته بل كان وجهها مسلوخاً قد انزاح بعضه عن جمجمة شبه محطّمة ، الآن تذكّرت ذلك الكابوس

الرهيب تماماً، وعادت أنفاسها إلى الاضطراب، ولكن شيئاً غريباً همس في أذنيها بكلام خفيض، فعادت إلى سابق رتابتها.

في الطريق إلى العمل الذي يقع بُعيد بيتها بشارعين، راقبت الذاهبين والآيبين ،وحدّقت في الوجوه، لعلّها ترى وجهاً قد مرّ معها في أحلامها، كانت أوّل الواصلين إلى العمل بعد صبي المشروبات. تأخّر المدير على غير عادته، وشعرت بقلق خاصٍ عليه، لم يفارقها وجهه المسلوخ، فقد كان يتراءى لها كلما حدّقت في ساعتها، في الظهيرة كان الخبر يملأ أرجاء البلدة، وكان السواد يسكن بيت ذلك المدير، لم تتفاجأ عندما علمت بأمر مقتله، في الحقيقة كانت تنتظر ذلك الخبر، لطالما تحققت أحلامها، أعني كوابيسها، فقد عرفت بموت كثير من معارفها قبل أن تُعلم بذلك رسمياً، لقد كانت كوابيسها المرآة لرؤية ذلك مسبقاً، حتى عندما قُتل خطيبها الذي كانت تحبّه إلى درجة الجنون ،كانت تعلم بذلك مسبقاً، فقد رأته في منامها مسجىً على صخور التلة، وقد تناوشت الوحوش بعضاً من لحمه قبل أن تجده الشرطة بأيام، و لبست السواد عليه ،فهي لم تستطع أن تتجاوز حبّها، الذي ما زالت تكنّه له على الرغم من أنّه كان على وشك أن يفسخ خطبتهما، ويمزّق قلبها، ويلقي به بعيداً، ليخلو له وجه صديقتها المقرّبة التي اختفت منذ موت خطيبها هي الأخرى ، البعض قال إنّها هاجرت بعيداً ؛ لأنّها لم تطق الحياة في البلدة بعد موت من أحبّت ، لكن شعوراً غريباً كان يقول لها إنّها قد لحقت

بطريقة ما من أحبّت إلى عالمه الآخر.

كان يوماً متعباً، كان وجه مديرها مرعباً، لنقل إنّه لم يكن وجهاً بالمعنى الدقيق ،بل قطعاً من اللحم والعظم، كان جسده المسجّى في المشرحة يبدو أصغر حجماً مما أعتادت عليه، طلبتها الشرطة لتتعرّف على جسده، كانت أعضاؤه بارزة بوضوح من تحت الغطاء الأبيض، تذّكرت كم قاومت هذا الجسد الذي امتدّ كحيوان ليفترسها، وليهتك عرضها، ولينهش عذريتها، ليته مدّ إليها يد عاشقٍ بدلاً من مخالبه الذئبية المفترسة، قالت في نفسها بتشفٍ ممزوج بتعبٍ :" لا بأس ، فقد نال الجزاء الذي يستحقه".

سريعاً ماحلّ الظلام، وسريعاً ما انتصف الليل ، أرادت أن تعود إلى بيتها، قرّرت أن تعبر الطريق المختصر الذي يمتدّ خلف الأحياء السكنية، حيث الظلام يتسلّل في بعض دروبه.كانت تتدثّر بممطرها الشتوي، كانت تعدّ قطرات المطر الحزينة، التي بدأت تهرب من السماء، وتحصي خطواتها كذلك ، وتطرق ملياً إلى وقعها على الارض . فجأة باتت الخطوات أكثر، شعرتْ بأنهّا يجب أن تهرب بل أن تركض، لكنّ الخطوات تبعتها ، بل وانهكتها ركضاً ،وصلت أخيراً إلى طريق موصد بالطوب ، واجهت وجهاً لوجه الخطوات التي تترصدها ، كان رجلاً يبدو السّكر على عينيه ، كان جاداً في انتهاكها، مدّ يديه اللعينتين إليها ، فجأة شعرت بروحها تُزهق ، رأت نفسها تسقط من بيت كبير لتدلف في غرفة خلفية لم تكن تعرف

بوجودها ،في البيت وجدت نفسها، ولكن في الغرفة الخلفية وجدت آلامها ومخاوفها وانكسارتها وحشود من خانوها ،ووجدت مزقاً من نفسها ، ولكن على شكل وحش، يتمدّد ليهصر من يخذلها أو يمتد إليها بيد طامعة.

نهشتْ بأظافرها وجه الرجل، ومزّقته إرباً بأسنانها،ثم داسته، وتركته جثة هامدة... للحظات رأت خطيبها وصديقتها ومديرها المعتدي والكثير الكثير من الرجال يسكنون غرفتها الخلفية التي تُوصد ببابٍ من الفولاذ، ابتعدت عن المكان، وسمعتْ صوت الباب الفولاذي يصتكّ خلفها بشدّة.وعادت إلى بيتها الذي تجهل أنّها تعيش في غرفته الخلفية السرية منذ زمن طويل.

في الصباح كانت متعبة من كوابيسها ،أسندت ظهرها إلى أريكتها ،ومثل العادة غار جسدها في جلد الأريكة، كانت متعبة، الكثير من الخدوش على يديها، تذكّرت كابوس البارحة بصعوبة. في أوّل صفحة من الصحيفة التي طالعتها رأت صورة الذي قتلته تتربّع تحت خبر عن مقتله الشنيع، شعرت بالخوف من ذلك المجرم الذي اعتدى على صاحب الصورة ،وقتله دون الرحمة.وفكّرت بجدية في الذهاب إلى العرّافة الغجرية ،لعلّها تخلّصها من الروح الشريرة.. ثم عادت وتراجعت عن قرارها، ومن جديد دخلت إلى الغرفة الخلفية حيث يقبع جزءٌ من ذاتها.

عنوان المؤلفة

الأردن- عمان- ١١٩٤٢

ص.ب ١٣١٨٦

البريد الإلكتروني

selenapollo@hotmail.com

رقم الإيداع بدار الكتب القطرية٢٠٠٦/٥٩٢
الرقم الدولي(ردمك):٥-٠٤-٤٣-٩٩٩٢١